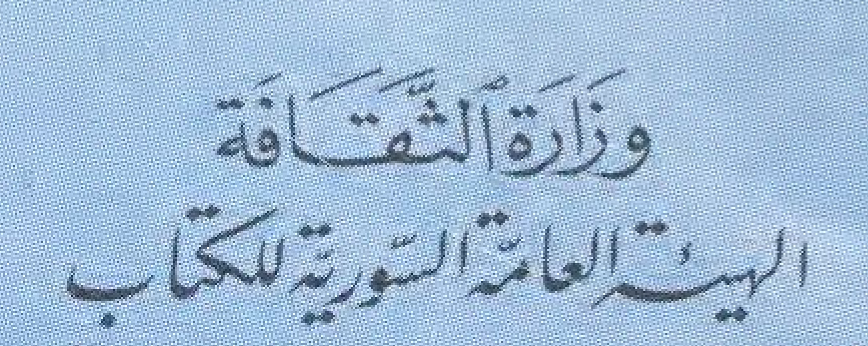




آفاق ثقافية مقدسية

حملات الفرنجة (وإسرائيل)

تشابه في المسار والمصير

تأليف
عبدالله سليم عمارة

تقديم وإعداد وضبط:
خيري الذهبي

الكتاب الشهري ٧٥

خيري الذهبي

- روائي سوري .
- مهتم بشؤون الأدب والترجمة والدراسات.
- له اهتمامات خاصة في علم التاريخ.
- يشرف الآن على سلسلة آفاق ثقافية دمشقية.

حملات الفرنجة

(وإسرائيل)

آفاق ثقافية مقدسية

حملات الفرنجة

(وإسرائيل)

تشابه في المسار والمصير

عبد الله سليم عمارة

تقديم وإعداد وضبط

خيري الذهبي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

آفـاق ثقافيـة مقدسية

العـدد (٧٥)

تمـوز ٢٠٠٩

هل يعيد التاريخ نفسه

خيري الذهبي ___________

عن آخر جولة صراع انتصر فيها شرقي المتوسط على غربيه وأعني مايسمى بالحروب الفرنجية، أو الحروب التي يحب الغرب تسميتها بالحروب الصليبية، عن هذه الحروب التي يعلق عليها محارب مسلم مثقف عاصر تلك الحروب، محارب يجسد كل صفات الفارس النبيل، فقد كان شاعراً، أميراً، مؤرخاً، عالم بلاغة، صياداً، وكان........ دبلوماسياً فارساً، هذا الرجل كان اسمه أسامة بن منقذ، وأسامة هذا يعلق على الحروب التي فرضها الغرب حديث التنصر على الشرق العربي المسلم، يعلّق فيقول: أما الفرنجة لعنهم الله، فلاشيء يميّزهم إلا الشجاعة والقوة، وهذه موجودة لدى السباع والحيوان، أما الإنسان فيتميز بالعقل والحكمة والشعر!!!!

هـذه الحـروب التـي استمرت مئتي عـام تقريبـاً وخـرج منهـا الـشرق محـرِّراً لأرضـه، منتـصراً وطـارداً للقـوى البربريـة عـن أرضـه، هـذه الأرض إذا مـا اسـتقرأنا أهلهـا المنتـصرين سـابقاً. استقرأناهم الآن أي بعد ثمان مئة عـام وسبرنا عـائلاتهم كلهـم. كبيـرهم وصـغيرهم، نبـيلهم وحقيـرهم، بحثـاً عـن عائلـة واحـدة تعلن بفخـر إنـي حفيدة ذلك العلم، أو الفـارس العظيم، أو الأميـر الكبيـر الـذي شـارك في الحـروب الفرنجيـة، فلـن نجـد عائلـة واحدة. فأين من يدعي أنه من أحفاد نور الدين محمـود، أو أيـن من يدعي أنه من أحفاد صلاح الدين الأيوبي، من أحفـاد مظفـر الـدين كوكبـوري، مـن أحفـاد بهـاء الـدين قراقـوش، مـن أحفـاد القاضي الفاضل، من أحفاد أسامة بن منقذ........

على الجانب الآخر، أي على الجانب الغربـي المهـزوم في تلـك الحـروب فـإن سـألت أسـر أوروبـة النبيلـة، والإقطاعيـة كلهـا، أو معظمها على الأقل عن أصولها فستجدهم جميعاً يفخرون ليس بأنَّ جدَّ هـذه الأسـرة، أو تلك كـان الأميـر أو الكونـت أو الفـارس الفلاني الذي شارك في الحروب الفرنجية، بل حتى بكون الجـد قد شارك فيها جندياً عادياً، أو سرجندياً، يعنـي رقيبـاً، أو حتـى برجاسياً وتعني بورجوازياً، أو تاجراً من تجار الحروب الفرنجية.

والسؤال لماذا حرصوا على تذكر تاريخ تلك المرحلة بهذا الإصرار والحنين.

وحرصنا على إضاعته وخسارته وتجاهله حتى لم يتبق من أحفاد أولئك المنتصرين من يخبر عنهم.

هذه الحروب التي استمرت مئتي عام والتي أصرَّ مؤرخو الشرق العربي المسلم وغير المسلم على تسميتها بحروب الفرنجة، وأصرَّ الغرب على تسميتها بالحروب الصليبية، فمن هؤلاء الذين سموا أنفسهم بالصليبيين؟

التاريخ يؤكد أن الكتلة الكبرى من مقاتلي الحروب الفر نجية كانوا من النورمان يليهم الفرانك والذين سيعرفون بعد قرون وبعد تشكل الدولة الفرنسية باسم الفرنسيين، النورمان هؤلاء، أو شعوب اسكانديناڤيا والذين دوّخوا أورية والأندلس الإسلامية تحت اسم الفايكنغ، قراصنة القتل والنهب، هؤلاء النورمان كانوا قد تنصروا مؤخراً، ولم يمض على تنصر بعضهم مئتا عام، وعلى البعض الآخر مئة عام، وكانوا قد دمّروا أورية وثنيين، ثم دمروها متنصرين، وحين حمَّلهم البابا أوربان الصليب ليغزو بهم الشرق الإسلامي، كان يريد التخلص من شغبهم وتدميرهم العنيف لأورية قديمة المسيحية، فوجَّههم إلى الشرق.

وحين اتجهوا إلى الشرق كان أول مادمروا هنغاريا، ثم بلغاريا الأرثوذكسية، ثم بيزنطة وعاصمتها القسطنطينية الأرثوذكسية، فزرعوا القتل والغصب والحرق والنهب في العالم المسيحي بشقيه قبل أن يصلوا إلى الشرق المسلم.

كان الشرق المسلم قد فقد وجهه السياسي العربي الحاكم، ولم يبق للعرب فيه إلا بضع إمارات ممزقة ماتزال تعوم في بحر السلاجقة الإمبراطوري الذي ساد العالم المسلم إذا ذاك، فقد بقي للعرب إمارة بني عمار في طرابلس، وإمارة بني منقذ في شيزر، وإمارة بني صدقة في جعبر، ودولة متداعية للفاطميين في مصر، ودولة لم يبق منها إلا الرمز للعباسيين في بغداد، فمرَّ الفرنجة من بينهم مرور السكين في الزبد، ولم يتركوا وراءهم وحيث حلُّوا إلا الخراب والحرائق والدمار البشري في المعرة وفي القدس وفي نيقية وفي أنطاكية، وسيول من دم وركام من جثث.

ثم جاء المدُّ الإسلامي فكسحهم واختفوا من التاريخ غير مبقين إلا كتلاً من حجارة تسمى قلاعاً، وذكريات من سواد لم يمحِ عن الصراع بين الدينين، وليس بين الحضارة والبداوة.

بعد خمس مئة عام وأربعين ونيف، قدم الفرنسيون إلى الجزائر ليصنعوا صفحة جديدة من الصراع بين الشرق والغرب ولن يسموه هذه المرة بالحروب الصليبية.

ولكنَّ أعظم دارسين للحروب الصليبية في العالم سيكون الفرنسيون، أرادوا دراسة ومعرفة الأسباب التي جعلت أجدادهم يخفقون في حروبهم الاستئصالية والاحتلالية في الساحل الشامي، وكان مما وصلوا إليه أن الخطأة الكبرى كانت في أنَّ الصليبيين في إقامتهم في الساحل الشامي حافظوا على كونهم أرستقراطية عسكرية تكتفي بجباية الضرائب والريوع من الفلاحين العرب الذين ظلوا على أرضهم فلم يختلطوا بالتراب، ولم يصبحوا وطنيين، فما إن ضعفت قواهم وانحلَّ وتر شدتهم الذي دخلوا عبره إلى الشرق وهزموا الهزيمة الأولى حتى تبخروا كأن لم يكونوا، وعادت البلاد والأرض إلى أصحابها.

قرر الفرنسيون محتلو الجزائر ألا يكرروا الخطأة نفسها، فقرَّروا ازدراع واستصلاح الأراضي الجزائرية بأنفسهم، فاستقدموا الحالمين، والراغبين في صنع فردوس أرضي على الأرض إلى الجزائر ، فطردوا الفلاحين عن أفضل الأراضي وصنعوا للحالمين بالاشتراكية مستعمرات، ومستوطنات، واشتراكيات، وتبدَّى وكأنَّ حلم تغيير العالم إلى العدل وإن على حساب الفقراء والضعفاء من أصحاب الأرض، ولكن لم تمض

بضع من عشرات السنين أو أقل حتى مال الحالمون والاشتراكيون إلى الراحة والاستعانة بالفقراء من المحليين في العمل الشاق الأسود، وهكذا ما إن انحل الطوق العسكري المنتصر حتى اختفت القشرة من المدَّعين الأوربيين عن الجزائر، ثم...... كانت الصهيونية التي تغلَّلت هذه المرة باليهودية، ولكن ماعلاقة الصهيونية باليهودية ومن هؤلاء الأوربيون الشقر الذين يدَّعون اليهودية، و يدَّعون حقاً بالساحل الشامي، ثم يدَّعون الصهيونية، ويدَّعون أنّ فلسطين وساحل الشام لهم، وأنهم أحفاد سليمان وداوود.........إلخ.

التاريخ يذكر مأثرة للعباسيين وهي أنهم انقلبوا وقاتلوا وطاردوا الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد حين كان قد هزم الخزر في باب الأبواب أو الدربند، أو في دولة الخزر..... طارده العباسيون بعد أن قارب جعل الخزر يسلمون أو يصبحون من رعايا المسلمين، فهرب مهزوماً إلى مصر وقتل في أنشاص في مصر، وانشغل العباسيون وعلى رأسهم السفاح أبو العباس بأمورهم الداخلية ومطاردة أعدائهم وتركوا الخزر يصنعون تاريخاً جديداً.

كان الخزر قوماً من الترك وثنيين قد صنعوا لأنفسهم إمبراطورية تجارية بين الشرق والغرب، وحين قويت دولة المسلمين خرجوا من وثنيتهم فاستدعى خاقانهم، أي ملكهم الأكبر حسب الباحث والروائي الهنغاري اليهودي أرثر كويستلر والذي كانت مراجعه كلها عربية بدءاً من ابن فضلان ومروراً بابن حاصول وابن حوقل، والبلاذري والمسعودي.....إلخ.

استدعى الخاقان شيخاً مسلماً وحاخاماً يهودياً وبطركاً مسيحياً، وقال لهم: حدثوني عن دينكم فإني قررت أن أتديّن ، فصار كلٌّ منهم يمتدح دينه ويزري بالدينين الآخرين ، سئم وحار الخاقان الوثني، فتسلل إليه الحاخام خلسة وقال: لن أعيد القول بأن اليهودية هي الخير، ولكن استدع الشيخ المسلم وسله: أيهما خير، المسيحية أم اليهودية وأنا راضٍ لجوابه، ولما كانت المسيحية الدين الخصم للمسلم، الخصم السياسي، فهي دين الروم البيزنطيين، فقد خيَّر اليهودية على المسيحية، ثم قال الحاخام للخاقان: استدع المسيحي وسله: أيهما خير، الإسلام أم اليهودية، وأنا راضٍ بخياره، ولما كان الإسلام دين الخصم السياسي، أي دين الدولة العباسية، فقد خيّر المسيحي اليهودية

على الإسلام، وهكذا اختار الخاقان اليهودية ديناً له، وكانت الدولة اليهودية الأقوى والأخطر في التاريخ الوسيط، الدولة التي حكمت الطريق التجاري بين الشرق والغرب والتي أذلت الروس الوثنيين واسترقّتهم وباعتهم حتى صارت كلمة صقالبة، أو سلاف تعني العبيد فهي بالفرنسية Esclave وبالانكليزية Slave.

استمرت دولة الخزر اليهودية قرنين أو أكثر ثم دمرتها دولة الروس التي تنصرت أخيراً، وتمزق يهود الخزر بين الدول السلافية حتى استقرت كتلة كبرى منهم في بولونيا، وكان القرن التاسع عشر القرن الذي أثرى فيه يهود المارينو والأسفاراد الهاربون من اسبانيا والذين خجلوا من يهود الخزر المتسربين من سلافيا بفقرهم وأفكارهم الراديكالية، وهكذا بدأت حكاية الحروب الصليبية الجديدة أو الصهيونية والتي ألقت أورية عن ظهرها بمكروهيها ومشاغبيها من اليهود، فرمت بهم إلى الساحل الشامي لتبدأ مأساة جديدة للشام إنها الحروب الصليبية ولكن بنجمة داوود هذه المرة.

بعد دراسة الفرنسيين لأسباب تهاوي المشروع الفرنجي في الشام جاء الآن اليهود الأشكناز، أو الصهاينة لدراسة أسباب هذا التهاوي لتحاشيه.

عن هذا الخوف يحدثنا مؤلف كتابنا (حملات الفرنجة وإسرائيل) عبد الله عمارة، فيقول على لسان اسحق رابين: إن أكثر مايخشاه على إسرائيل هو أن تذبل إذا أصابها جفاف الهجرة كما حصل مع الدولة الصليبية قبل ثمانية قرون.

أما يوري أفنيري الصحفي والمفكر الإسرائيلي وصاحب صحيفة هاعولام هازيه: أي هذا العالم، فيقول متسائلاً في مقال شهير له: هل انقراض الدولة الصليبية سيتبعه انقراض الدولة الإسرائيلية؟

وفي هذا السياق يقول الخبير الاستراتيجي الأميركي: قد تظل إسرائيل متفوقة إلى أمد، ولكن المنطق وقانون المعدلات يوحي بأنّ إسرائيل الصغيرة المحاطة بكتلة بشرية هائلة من العرب ستفقد في زمن ماتفوقها، .....وعندئذٍ......

حسن. هذا كتاب يقيم مقارنة صحيحة بين جسمين غريبين دُسًا في خاصرة العالم العربي وفي قلب الشام وشكلا صداعاً للأمة العربية والإسلامية للقرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادية، فكم يحتاج هذا العالم حتى يقتلع هذه الشوكة الجديدة من خاصرته...... التاريخ صارم وهم يعرفون

ونحن نعرف أنَّ قادتهم إنما يضحون بالكتلة البشرية اليهودية أمام محرق أطماع القادة من الصهاينة اليهود والأميركيين وحين تنتفي الحاجة لهم سيتخلون عنهم كما تخلت البرتغال عن غوا، والبريطانيون عن هونغ كونغ.

خيري الذهبي

إهـداء

أهدي هذا الكتاب :

إلى أولئك الذين استشعروا أخطار الفرقة والإنقسام الذي كانت تعاني منه الأمة العربية إبان الغزو الفرنجي للمشرق العربي، فاستقووا بشعوبهم كما شعوبهم استقوت بهم .

إلى عـمـاد الدين زنكي، ونور الدين محـمـود، وصـلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، والأشرف خليل بن المنصور، وغيرهم من الذين انتصروا للوطن ووحدته، فنبذوا الخلافات، وقضوا على النعرات الإنعزالية، وعملوا على تمتين عُرى الوحدة بين أبناء الأمة، فكانت وحدة بلاد الشام ومصر، فطوّعوا الموارد البشرية والعسكرية والاقتصادية في خدمة تحرير بيت المقدس والأرض العربية من الاحتلال الفرنجي، وبفضل ذلك، كانت معركة حطين، التي تُوُجت بتحرير بيت المقدس كما فلسطين كلها وكل بقعة عربية وطأها الغزو الفرنجي .

وإلى كل شهيد روّى بدمه تراب فلسطين والأرض العربية دفاعاً عن كرامتها وحريتها ووحدتها .

الفصل الأول
أوجه الشبه بين إسرائيل وحملات الفرنجة

المقدمة:

تُولي إسرائيل حملات الفرنجة على المشرق العربي اهتماماً زائداً، من خلال البحوث والدراسات التحليلية لتلك الحملات، من حيث أحداثها، وبخاصة العوامل التي أدَّت إلى زوال الكيانات المصطنعة التي زرعتها في بلاد الشام وبخاصة المملكة اللاتينية في القدس، رغم الدعم اللامحدود التي كانت تتلقاها من الغرب الأوروبي طوال قرنين من الزمان، بل إن تجربة الغزو الفرنجي «تشكل هاجساً وشبحاً يؤرق حكام إسرائيل ومثقفيها، ويكاد يقضُ مضاجع بعضهم، سياسيين وعسكريين ومفكرين»[1]، ومن هؤلاء الذين تناولوا حملات الفرنجة

---

(١) عبد العال الباقوري: العرب والصهاينة، دروس في التجربة الصليبية، عن الانترنيت، .WWW.sis.gov.

بالدراسة المستفيضة والمعمقة: اسحق رابين، وشيمون بيريز، وبنيامين نتنياهو، والبروفسور يشوع برافر أحد خبراء تاريخ الصليبيين، ويوري أفنيري، وهناك فرق عمل من المفكرين والأكاديميين في الجامعات العبرية تخصصت في دراسة الحروب الصليبية، ويكتبون بلغات عديدة، ويتابعون ما ينشر عن الصليبيات في العالم أجمع»[1]، وجميعهم يتفقون على ضرورة استخلاص الدروس المستفادة للأخذ بها وتطبيقها، من خلال إبراز الأخطاء التي ارتكبها الفرنجة، وأدَّت إلى نهايتهم، لعل ذلك، يسهم في الحيلولة دون أن تَلقى إسرائيل المصير نفسه الذي آلت إليه مملكة بيت المقدس اللاتينية، وتأكيداً على ذلك، فإن **يوري أفنيري** من خلال دراسته التحليلية للغزو الفرنجي، يتساءل بكل صراحة ووضوح: **«هل انقراض الدولة الصليبية سيتبعه انقراض الدولة الإسرائيلية؟** ويؤكد ذلك الدكتور **شاكر مصطفى**، بأنَّ اهتمامات المستشرقين اليهود منحصرة في نقطة وحيدة، هي: كيف تمَّ انهيار مملكة القدس اللاتينية، وطرد الفرنجة المحتلين من

---

(١) عبد اللطيف زكي أبو هاشم: بحث لماذا أحرق مايكل دوهان منبر نور الدين زنكي، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، فلسطين، القدس، ص٥، عن الانترنيت: WWW. palwakf.org .

البقاع نفسها التي يحتلونها، وبحثاً عن الإجابة عن هذا السؤال، يتابع شاكر مصطفى، قائلاً: «فإنّ هؤلاء المستشرقين اليهود والصهاينة، يدرسون ويحللون مدى قدسية القدس، وعناصرها في نفوس المسلمين... وردود فعلهم ضد الاحتلال الغريب، ويبحثون عن جذور الترابط في المنطقة من مصر إلى العراق، وعن أسباب توحده في حطّين... كما أنهم يلاحقون نصوص التراث، الذي نتصور أنه نائم في دمائنا وأدراجنا، فهو لديهم كيان كامل على المشرحة، يستنطقونه ويحكمون علينا من خلاله... واهتموا بالشعراء الذين عاصروا الحروب الصليبية... كما يدرسون كتب الفقه والفتاوى... وأعطوا اهتماماً خاصاً للسير الشعبية، حيث يرون فيها منجم المشاعر العميقة للجموع المقاتلة، مثل سيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة عنترة، وفتوح الشام للواقدي، وفتوح الشام الأخرى للأزدي، وقصة علي نور الدين المصري مع مريم الزنارية، ويصلون حتى تحليل النكات والنوادر...»(١).

أما بعض القادة السياسيين والعسكريين العرب، يستشهدون في كل مناسبة بأن إسرائيل لن يكون مصيرها أفضل من المصير الذي آلت إليه مملكة بيت المقدس اللاتينية، إن الاكتفاء

(١) عبداللطيف زكي أبو هاشم: مرجع سابق.

بمثل هذه التصريحات، هو بمثابة إرضاء للرأي العام العربي، وتخديره، بينما قادة إسرائيل يدرسون حملات الفرنجة، وفي ضوئها يعدّون الخطط العملية الكفيلة بإبقاء الواقع العربي متناحراً، مجزءاً، والكفيلة بإحباط الرأي العام العربي، والوصول به إلى مرحلة اليأس من مواجهة إسرائيل ودحرها، كما أنّ هذه الخطط، تعمل على الصعيدين الديبلوماسي والعسكري، بحيث تُبقي الدعم الأوروبي وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية مستمراً ومتزايداً، هذا من ناحية، إلى جانب العمل على ديمومة التفوق العسكري لآلتهم الحربية من ناحية أخرى.

إنّ أكبر خديعة يقع فيها القادة عندما يركنون إلى التاريخ، دون استخلاص الدروس المستفادة من أحداثه، بل تتعاظم هذه الخديعة بالاكتفاء بالتغني به، والاعتماد على أمجاده، إنّ التاريخ يتفعّل بإحيائه، عندما يستنهض هؤلاء القادة الأمة عسكرياً واقتصادياً وديبلوماسياً، لمواجهة إسرائيل ومخططاتها العدوانية التوسعية، إنّ دعاة الحل الصليبي للقضية الفلسطينية الذين يركنون إلى التاريخ فقط دون أن يفعّلوا التاريخ، «إنهم ينتظرون سقوط إسرائيل كتفاحة ناضجة من على الشجرة غير عالمين بأن

الأمثولة الصليبية تعني مبادرة عربية»[1]، مستندة إلى آليات عمل جادة، وقابلة للتنفيذ.

إن الشعارات وحدها، لا يمكن أن تأتي ب: عماد الدين زنكي، أو نور الدين محمود، أو صلاح الدين الأيوبي، أو الظاهر بيبرس، أو الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، إنما استنهاض الأمة، وتوفير كل الظروف الملائمة، هي التي تجعل الأمة تفسح المجال لظهور قادة مثل أولئك القادة الذين حرروا الأرض العربية من الاحتلال الفرنجي، وأزالوا مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأعادوا للقدس هويتها العربية الإسلامية.

وفي ضوء ما سبق، فإنَّ هذه الدراسة، تلقي الضوء على نقاط التشابه بين مسيرة الغزو الفرنجي للوطن العربي، والغزو الصهيوني، من حيث الأحداث التاريخية المصاحبة لكلٍ من الغزوتين، مع التركيز على العوامل التي أدت إلى انهيار مملكة بيت المقدس اللاتينية وزوالها، وتبيان المأزق الذي تعيشه إسرائيل في ضوء السابقة الصليبية.

---

(١) أنطوان بطرس: مشكلة إسرائيل بين أمثولة التاريخ وبرامج البقاء، شؤون فلسطينية، العدد ٢٢، حزيران (يونيو) ١٩٧٣ ن ص ٢١-٢٢.

حروب صليبية أم حروب الفرنجة؟

لم يعرف التاريخ الإنساني ظاهرة تاريخية حملت مصطلحاً مناقضاً لحقيقتها مثل الحروب الصليبية، فهل هي حروب صليبية غاياتها دينية فقط، أم أنها اتخذت من الصليب غطاء لتحقيق غايات عدوانية احتلالية مهَّدت لظهور حركة الاستعمار الأوروبي الحديث؟ لا بل مهدت لقيام إسرائيل ومن أجل إزالة التناقض الذي يحمله هذا المصطلح، فإن هذه الدراسة تستخدم مصطلح «**حروب الفرنجة**» أو «**حملات الفرنجة**»، وذلك اتساقاً مع ما ذهب إليه المؤرخون المسلمون المعاصرون للحروب الصليبية، من مثل: ابن القلانسي، وابن الأثير، وابن واصل، وابن شدّاد، والعماد الأصفهاني، والمقريزي، والقلقشندي، وغيرهم[1]، فلقد أدرك هؤلاء المؤرخون حقيقة الحروب الصليبية، فاستخدموا مسمى «حروب الفرنجة»، لأنهم رأوا في الصليب «رمزا للفداء والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين، ولم يكن الصليب أبداً رمزاً للحرب والقتل والعدوان»[2].

---

(١) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، العدد ١٤٩، مايو (أيار) ١٩٩٠، الكويت، ص١٤.

(٢) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١١.

والمفارقة أنَّ بعض المؤرخين الأوروبيين أشاعوا في العصر الحديث مصطلح «الحروب الصليبية» بمعناه الرمزي الديني، بحيث أصبح هذا المصطلح مغروساً في الوجدان الشعبي الأوروبي والأمريكي، بل أصبح بعض قادة الرأي والساسة الغربيين يستخدمون هذا المصطلح اعتزازاً بما قامت به «الحملات الصليبية» من قتل وتدمير في المشرق العربي الإسلامي، متناسين ما قامت به هذه الحملات من قتل المسيحيين وتدمير ممتلكاتهم، ونهبها كما حدث في البلاد المسيحية، كالبلقان والإمبراطورية البيزنطية التي ظلَّت تحت وطأة الصليبيين أكثر من نصف قرن، وما قاله رئيس الولايات المتحدة الأمريكية «جورج بوش» عشية الحرب على العراق، حيث وصف هذه الحرب بأنها حرب صليبية، أي أنَّها حرب مقدسة، محاولاً إضفاء القدسية على هذه الحرب من خلال استرجاع المشهد الرمزي الديني الذي صاحب الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

ويلاحظ أنَّ الدراسات التاريخية العربية والإسلامية التي تستخدم مصطلح الحروب الصليبية»، فإنها تستخدمه في السياق الذي يدل عليه مصطلح «حروب الفرنجة»، باعتبارها أول المشروعات الاستعمارية الأوروبية في المشرق العربي، كما أنها

كانت إلهاماً للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية في فلسطين وبلاد الشام[1]، كما أنّ هذه الدراسات - العربية الإسلامية- أسقطت عن الدين المسيحي وزر ما قامت به الحروب الصليبية من مذابح وحشية عانى منها المسلمون، كما عانى منها المسيحيون أنفسهم، وبخاصة مسيحيو الشرق، وتأكيداً على ذلك، يقول شاكر مصطفى: إن الحروب الصليبية مظلومة في طابعها «الصليبي»، فهي فرنجية غربية لا صليبية، كان هدفها تحقيق مصالح وأطماع المدن التجارية الإيطالية والفرنسية التي استثمرت أوسع استثمار ما أُهرق من الدماء في هذه الحروب، كما كان هدفها تطهير الغريزة الإقطاعية وإيجاد منطلق لمطامع المغامرين الزائدين عن الحاجة في أوروبا من الفرسان الإقطاعيين، وإيجاد متنفس للأفواه الجائعة، وللمدينين المعسرين، ولشذّاذ الطرق والآبقين وجهلة الرهبان والخاطئين والقتلة ... ولم يكن أولئك الذين اشتركوا في تلك الحملات رهباناً ولا دعاة سلام ولا «مجاهدين» دينيين، ولكن أمراء وتجاراً فقط . . وقد استخدموا الحروب لتحقيق أغراضهم التي لم تكن تجاوز في السمو، الأرض والمال . . لأنّ صورة الشرق في أذهانهم كانت صورة منابع

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابقن، ص١١ .

الذهب في أيدي برابرة كفرة جبناء، وما يثبت ذلك، أنّ خمساً من الحملات الثمان التي يعدونها للحروب الصليبية لم تتجه إلى «القبر المقدس» في فلسطين، ولكن اتجهت إلى غيره: واحدة إلى دمشق، وواحدة إلى القسطنطينية، وإثنتان إلى مصر، وواحدة أخيرة إلى تونس... وهكذا، فالمدخل إلى الحروب الصليبية من خلال الدين مضلّل[1]، وفي هذا السياق تستخدم هذه الدراسة -أحياناً- مصطلح «الحروب الصليبية» باعتباره أصبح مصطلحاً شائعاً، ولكن في السياق الذي يرمي إليه مصطلح «حروب الفرنجة».

أوجه الشبه بين إسرائيل وحملات الفرنجة:

إنّ المتتبع لتاريخ حملات الفرنجة في المشرق العربي، وفي بلاد الشام وفلسطين بخاصة، يدهش لأوجه الشبه بينها وبين الدعوات والأساليب التي أدَّت إلى قيام إسرائيل، ووجه الشبه ليس في «الخطوط العامة والعريضة بل شبهاً فوتوغرافياً في التفاصيل الدقيقة»[2]، فالغزوة الفرنجيةوالغزوة الصهيونية،

---

(١) شاكر مصطفى: فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، الدراسات التاريخية، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص ٣٦٤.

(٢) أنطوان بطرس: مرجع سابق، ص ١٩.

كأنهما فلقتان أخرجتا من بذرة واحدة، وكلتاهما حركتان استعماريتان استيطانيتان تسربلتا برداء الدين، وارتكزتا على مفهوم الخلاص، وكل منهما كيان غريب، يضم مجموعة بشرية متفاوتة الثقافات والدرجات الحضارية، زرع في أرض غريبة اللسان، إسلامية الثقافة، مشرقية السمات ... وإنَّ هذا التشابه بين المشروع الفرنجي الصليبي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، هو أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلتين الحضاريتين السائدتين في الغرب والشرق العربي، كما أنَّ حملات الفرنجة هي انطلاق أوروبا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج[1] ... ومن نقاط التشابه الأخرى بين المشروعين الفرنجي والصهيوني، هو، أنهما، «مشروعان استعماريان من النوع الإستيطاني الإحلالي، أما المشروع الفرنجي، كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي، ولذا لم تأت الجيوش وحسب، وإنما أتى معها العنصر البشري الغربي المسيحي ليحل

---

(١) عبد اللطيف زكي أبو هاشم: بحث لماذا أحرق مايكل دوهان منبر نور الدين بن زنكي، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، فلسطين، عن الإنترنيت WWW.Palwakf.org.

محل العنصر البشري العربي الإسلامي، وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل ...»[1]، فالحركة الصهيونية استغلت الأساطير الدينية لتحقيق مآربها العدوانية الاستيطانية في فلسطين، كما اتَّخذ الفرنجة من الدين ستاراً يخفي أهدافهم الاحتلالية الاستيطانية في المشرق العربي وفلسطين بخاصة، فإن الحركة الصهيونية عملت على كسب تأييد الدول الاستعمارية الأوروبية الطامعة بالسيطرة على الشرق العربي وثرواته وموقعه الاستراتيجي لإحكام السيطرة على طرق التجارة العالمية، كما أنَّ البابا أوربان الثاني نجح في حشد ملوك وأمراء وفرسان أوروبا في مؤتمر «كلير مونت» ١٠٩٥م، ودعاهم إلى التوجه إلى الأرض المقدسة لمحاربة المسلمين، وتخليص بيت المقدس من أيديهم، على أنَّ الأمراء والفرسان وتجار المدن الإيطالية لم يستجيبوا لنداء البابا أوربان الثاني، إلا لأنَّهم رأوا في الاشتراك في الحرب وسيلة لتحقيق مطامعهم التي لا تمت إلى الدين بصلة.

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، دار الشروق، للقاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص ١٣٢.

ومنذ قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨ وحتى الآن وهي لم تكف عن أعمالها العدوانية، وارتكاب أبشع المجازر بالشعب الفلسطيني، بهدف اقتلاعه من أرضه، وطمس هويته الوطنية والقومية، هذا من ناحية، وإرهاب شعوب المنطقة وقهرها، من ناحية أخرى، كل ذلك في سبيل تثبيت وجودها اللاشرعي، ومن أجل أن تتحاشى المصير الذي آلت إليه الممالك والإمارات التي أقامتها حملات الفرنجة في بلاد الشام وفلسطين.

ورغم أنَّ إسرائيل ولادة غير شرعية -كما الممالك والإمارات الصليبية- إلا أنَّها مازالت تستمد قدرتها على الاستمرار والوجود، بفضل الحاضنة الأمريكية التي مدّت إسرائيل وما زالت تمدّها بكل أسباب الحياة.

ورغم ما تملكه إسرائيل من آلة حربية متطورة، تجعلها الأقوى عسكرياً في المنطقة، إلا أنَّها غير قابلة للعيش إذا ما أُخرجت من الحاضنة الأمريكية، لأنَّ الوسط الجغرافي والبشري والثقافي والحضاري الذي زُرعت فيه لا تمت له بصلة، فهي غريبة عنه، ولذلك فإنَّ هذا الوسط يلفظها، ويقاوم وجودها باعتبارها عضواً غريباً ونبتاً شيطانياً.

إن إسرائيل تدرك هذه الحقيقة، تدرك أن الأرض ليست أرضها، وأن الثقافة ليست ثقافتها، وأن الحضارة ليست حضارتها، فلذلك، ومنذ إعلان قيامها، قلدت ما ارتكبته حملات الفرنجة من مجازر يندى لها الجبين البشري، لذلك، فإنها تنتهج سياسة عدوانية، تحاول من خلالها، إرهاب هذا الوسط بكل أشكال إرهاب الدولة، فلجأت، وتلجأ إلى تدمير البشر والحجر والشجر، لعلَّ وعسى تغير من ملامح هذا الوسط، فتفقده القدرة على المقاومة، وتسلبه حقه المشروع في الدفاع عن نفسه، فتُدخل الرعب في أوصاله، فتنهار مناعته، فيتقبل هذا الجسم الغريب، ويستسلم لمخططاته العدوانية.

فإذا كانت إسرائيل ترى في الفرنجة الغزاة قدوتها، فإن الفرنجة الذين دام احتلالهم للمشرق العربي حوالي قرنين من الزمان (أي من سنة ١٠٩٥ إلى ١٢٩١)، فإنهم فشلوا في بقائهم في المستوطنات التي أقاموها، رغم الدعم اللامحدود من أمراء وملوك أوروبا.

ورغم أن إسرائيل «استطاعت أن تفرض نفسها بحد السيف، لكن إلى متى يظل سيفها مجلياً، وهل أن الإرادة العربية المقهورة ستظل ظاهرة تاريخية أم أنها ستتحرك مع التطور العربي

فيعود العرب إلى مواقفهم الأساسية كما حصل أيام الصليبيين»[1]، وفي هذا السياق يقول أحد الخبراء الاستراتيجيين الأمريكيين «**فإن إسرائيل قد تظل متفوقة، ولكن المنطق وقانون المعدلات يوحي بأنَّ إسرائيل الصغيرة المحاطة بكتلة بشرية هائلة من العرب ستفقد في وقت ما تفوقها**»[2].

إنَّ قادة إسرائيل لم تغب عن ذاكرتهم المآل الذي آلت إليه الإمارات والممالك التي أقامها الفرنجة بحد السيف، فالجنرال اسحق رابين أدهش مستمعيه في الخطاب الذي ألقاه في أيلول ١٩٦٧ في احتفالات الذكرى السبعين لانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول حينما شبه إسرائيل بالدولة الصليبية، وقال: «**إنَّ أكثر ما يخشاه على إسرائيل هو أن تذبل إذا أصابها جفاف الهجرة كما حصل الأمر مع الدولة الصليبية**»[3]، إنَّ خطاب رابين يحمل دلالة على مدى توجس إسرائيل خيفة من أن تلقى المصير نفسه التي لقيته كيانات الفرنجة المصطنعة في فلسطين وسورية، حيث أنَّ أوروبا وشعوبها أصابها الملل والتعب من مدّ الدولة الصليبية بالرجال

---

(١) أنطوان بطرس، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) أنطوان بطرس، مرجع سابق، ص ١٨.

(٣) أنطوان بطرس، مرجع سابق، ص ٢٠.

والمال والعتاد، وبدون هذا العون، بدأت هذه الإمارات والممالك تذبل وتنهار الواحدة تلو الأخرى أمام الرفض الشعبي العربي لها، ، الذي كان وراء توحيد الجبهة العربية (مصر وسورية) بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي قهر الصليبيين، وحرر القدس في سنة ١١٨٧م، واسترد معظم الأراضي التي استولوا عليها، وفي سنة ١٢٩١م، انهارت كل الأمارات والممالك الصليبية بعد ثماني موجات من الحروب القاسية والوحشية التي قادها الغزاة الفرنجة، وانقطع دابر الصليبيين نهائيا من المشرق العربي، وفي سنة ١٩٤٨م زرعت اسرئيل في فلسطين لإحياء المشهد الصليبي بعدوانيته، وأهدافه، ووحشيته.

أحوال المشرق العربي قبيل الغزو الفرنجي:

اتسعت رقعة الدولة العربية الإسلامية في ظل الدولتين الأموية والعباسية، فامتدَّت حدودها من الهند والصين شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً، وامتازت هذه الدولة بوحدة ثقافية، أنتجت حضارة إنسانية أفادت منها البشرية جمعاء.

ولما اعترى الدولة العربية الإسلامية في عصرها العباسي الثاني الضعف والوهن، بدأ حكام الأقاليم يتنصلون من تبعيتهم للخليفة العباسي، بحيث أصبح -الخليفة- مجرداً من السلطة الفعلية، إلا من احتفاظه باللقب، ومع منتصف القرن التاسع

الميلادي، تعمقت مظاهر التفكك والتجزئة، التي اعترت الدولة العباسية، فتمادى حكام الأقاليم على الخلافة العباسية، فمنهم من أعلن انفصاله التام عنها، ومنهم من تدثَّر بدثار الخلافة العباسية دون أن يكون لهذه الخلافة السلطة الفعلية عليهم، وفي القرن العاشر الميلادي، قامت الخلافة الفاطمية في المغرب العربي ومصر، وبذلك أصبح يتقاسم الحكم في الوطن العربي والإسلامي ثلاث خلافات متنازعة سياسياً ومتخاصمة مذهبياً: الخلافة العباسية ومركزها بغداد، والخلافة الفاطمية ومركزها القاهرة، والخلافة الأموية في الأندلس.

وما إن أطل القرن الحادي عشر الميلادي، حتى أصبح المشرق العربي مسرحاً للاقتتال بين الخلافتين العباسية وحلفائها، والخلافة الفاطمية وحلفائها، فالسلاجقة[1] –حلفاء الخلافة

---

(١) أصل السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى القبائل التركية المعروفة بالأغوز، وفي العربية «الغزّ» وقد هاجرت هذه القبائل من سهول تركستان، وترجع تسميتهم نسبة إلى أحد أجدادهم» سلجوق بن دقاق»، الذي جمع شمل هذه القبائل، ووحَّد كلمتهم تحت زعامته، كما أن هذه القبائل اعتنقت الإسلام على المذهب السني، ونجحوا في مدة قصيرة في أن يصبحوا قوة إسلامية كبرى، حظيت بتأييد الخلافة العباسية، وشمل حكمهم إيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

العباسية- الذين هزموا الإمبراطورية البيزنطية وأسروا امبراطرها في معركة «ملاذ كرد» سنة ١٠٧١م. تحولوا إلى منازلة الفاطميين، فانتزعوا منهم فلسطين، ثم استولوا على دمشق، وبسطوا سيطرتهم على الرُّها والموصل، ولم يلبث أن استعر القتال بين أمراء السلاجقة، فانقسمت الدولة السلجوقية إلى دويلات متناحرة فيما بينها، وقد عرفت باسم دول الأتابكة[١]، ومن هذه الدولة: أتابكية دمشق، وأتابكية الموصل والجزيرة وسورية، كما استغل أمراء المدن الشامية الاقتتال الفاطمي السلجوقي، وانقسام البيت السلجوقي، فأعلنوا استقلالهم الداخلي، وانقسموا بين مؤيد للعباسيين، ومؤيد للفاطميين.

أما الخلافة الأموية في الأندلس، فقد سقطت في سنة ١٠٣١م، وقام على أنقاضها دويلات، عرفت باسم دول الطوائف أو ملوك الطوائف، ونتيجة الاقتتال فيما بينها، لم

---

(١) الأتابك: هو مربي الأمير الصغير والمشرف عليه، وقد اعتمد عليهم السلاجقة في الجيش والقصور حتى أصبحوا أوصياء (أي أتابكة) على أبناء السلاطين، وانتهز هؤلاء الأتابكة ضعف الدولة السلجوقية، فاستقل كل واحد منهم بإمارة يحكمها، سميت أتابكية، مما أضعف الدولة السلجوقية، وجزأها إلى أتابكيات متناحرة.

تستطع هذه الدويلات الصمود أمام حروب الاسترداد -التي قادها ملوك قشتالة وأرغون- التي أنهت حكم المسلمين في الأندلس الذي دام من سنة (٧٥٦) إلى سنة (١٤٩٢).

مؤتمر كليرمونت ١٠٩٥م والمؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧م:

استثمر المسلمون السلاجقة انتصارهم الساحق على الجيش البيزنطي في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١، كما أنهم انتهزوا تردي الأوضاع الداخلية في بيزنطة، التي كانت غاية في السوء، فأخذوا يتوغلون في آسيا الصغرى، فاستولوا على أنطاكية سنة ١٠٨٥، وعلى نيقية سنة ١٠٩٢، وبذلك استولوا على معظم آسيا الصغرى التابعة لبيزنطة.

أيقن الإمبراطور البيزنطي «اليكسوس كومنين»، أنه غير قادر على درء الخطر السلجوقي الذي يحيق به، فتوجه بنداء استغاثة، يطلب المساعدة من البابا والغرب الكاثوليكي، متذرعا بالقدس، وإنقاذ الأماكن المسيحية المقدسة فيها[1]، فرأى البابا

---

(١) الياس شوفاني: الموجز في تاريخ فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ديسمبر، ص ١٩٠.

أوربان الثاني في هزيمة بيزنطة فرصة سانحة في أن يحول ورطتها إلى ميزة، ومصدر نفع للبابوية، تتيح له الفرصة التي كان يتطلع إليها لتوحيد الكنيستين الشرقية (الأرثوذكسية)، والغربية (الكاثوليكية)، تحت زعامته، بعد الانشقاق الذي حدث سنة ١٠٥٤، كما رآها فرصة لإنتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين[١].

وما أن تلقى البابا أوربان الثاني نداء الاستغاثة من الإمبراطور البيزنطي، حتى التقطها كفرصة سانحة لتحقيق ما كان يتطلع إليه، فعمل على حشد العالم المسيحي الغربي، فدعا إلى عقد مؤتمر في مدينة كليرمونت الفرنسية في ٢٦/ نوفمبر/ ١٠٩٥م، فتقاطرت إليه جميع الشعوب الأوروبية من رؤساء كنائس، وفرسان، ونبلاء، ووفود ملوك وغيرهم، حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب[٢]، وانتهز بطرس السائح -الذي كان جالساً بجانب البابا- هذه الفرصة، وألقى خطبة حماسية، مؤلبا المشاعر الدينية ضد مسلمي

(١) أرنست باركر، ترجمة السيد الباز العريني: الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، بيروت.

(٢) سيد علي الحريري، تحقيق: عصام محمد شبارو: دار التضامن ومؤسسة دار الكتاب الحديث، ط١، ١٩٨٨، ص ٢٤.

الشرق، ومزوّرا الحقائق، ومعدّداً الشدائد -زوراً وبهتانا- التي يعانيها مسيحيو بيت المقدس، قائلاً: «إنه شاهد هناك المسيحيين مقيَّدين بالسلاسل الحديدية، وأنه نظر قبر المسيح محتقراً مهاناً، وأنَّ زواره يتكبدون الذل»[1] ولما أحسّ البابا أن هذا الحشد أصبح مهيأً، بل متحمساً للزحف نحو بيت المقدس، خطب قائلاً: «أيها المسيحيون إنَّ تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلّص فيها، تلك المنارة المرعية المختصة بفادينا، وذلك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا، الذي قبل لأن يدفن فيه ضحية للموت، كلها أصبحت ميراثاً لشعب غريب، وغاب كل بهائها الأصلي، وهيكله قد خربت، وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك، وهي تستحق الندب الشديد والبكاء، ولم يعد للّه من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية، والمشرق الذي هو المهد والينبوع المقدس لإيماننا، لم يعد مشهداً إلا لافتخارات أعمال المسلمين...»[2].

ولم يكتف البابا بتأليب المشاعر الدينية ضد المسلمين، وتزوير الحقائق، بل أراد أن يغريهم بخزائن الشرق وثرواته، وأن

---

(١) سيد علي الحريري: مرجع سابق، ص ٢٤.
(٢) سيد علي الحريري: مرجع سابق، ص ٢٥.

يخلصهم من أحوالهم المعيشية المزرية، ومن الاقتتال فيما بينهم، فأردف قائلاً: «لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم لأخذ الثأر لأنفسكم من أبناء جنسكم عن بعض الإهانات ضد البشر، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة.

(أي بيت المقدس) فقط، بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً... يا أيها الشجعان اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية، واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً، وأما إذا قتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع»[(١)]، وأعفى البابا أن كل من يشترك في هذه الحروب تغفر له ذنوبه، ويدخل في حماية الكنيسة[(٢)]، ثم أخرج علامة الفدا

---

(١) سيد علي الحريري: مرجع سابق، ص٢٥.

(٢) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، ١٩٩٠، ص٧٢٦.

(صليب الخلاص)، وقال: «احملوه على عواتقكم أو على صدوركم وليشرف أسلحتكم وفي رؤوس سناجقكم (أي أعلامكم).

وما أن انتهى البابا من خطبته المحرضة، حتى صاحوا صيحتهم المشهورة «هذه هي إرادة الله» وركع المحتشدون على أقدامهم، وأقسموا اليمين على استرداد الأماكن المقدسة[1]، وعلّق جميع الحاضرين على صدورهم صلباناً حمراء، واتخذوا لنفسهم اسم «صليبيين»، وبذلك لقبت الحرب التي شرعوا فيها «حرب الصليب المقدس».

إنَّ تركيز البابا أوربان الثاني على غزو الأراضي المقدسة، وتوظيف النبوءات التوراتية لخدمة أغراضه العدوانية، تبيِّن أن «البابا أوربان الثاني نظر إلى الحروب الصليبية نظرة اختلفت عما أرادته الإمبراطورية البيزنطية، فالإمبراطور البيزنطي «اليكسوس كومنين» أراد - حين استنجد بالبابوية -أن يسعفها الغرب بقوة تمكنه من استرداد آسيا الصغرى من قبضة المسلمين، أما البابا أوربان الثاني فلم يكن يهتم بأمر آسيا الصغرى قدر اهتمامه

(١) صلاح الدين محمد نوّار: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، دار الدعوة، ١٩٩٣، ص٢٢.

بالأراضي المقدسة، وتخليصها من سيطرة المسلمين، وهكذا بدا عدم الانسجام والتوافق في الأغراض بين الحروب الصليبية التي دعت لها البابوية، والحروب التي أرادتها الدولة البيزنطية»[1].

وبذلك بدأت أول حملة فرنجية منظمة في سنة ١٠٩٦م، فالبابا رأى أن نجاحه في السيطرة على الأراضي المقدسة في فلسطين، يكفل له توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وفرض سلطان البابوية الديني والزمني على العالم المسيحي، أما أمراء أوروبا وفرسانها وملوكها، فقد رأوا فيها الفرصة التي لا تفوّت من أجل مدّ نفوذهم خارج أوروبا، كما رأوا فيها «فرصة مواتية لتلبية النزعات القتالية وميول المغامرةوحب الثروة والغنائم والطمع في تأسيس اقطاعات جديدة، إضافة إلى الإسم والجاه والسمعة»[2] كما أنّ حكام المدن الإيطالية رأوا فيها الفرصة السانحة للسيطرة على طرق التجارة بين أوروبا وآسيا، والتحكم بالثروات، وتصريف تجارتهم، أما شعوب أوروبا، فمنهم من رأى فيها الهروب من الواقع المعيشي المزري الذي كانوا يعانون

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو -المصرية، ط١٠، ١٩٨٦، ص ٤٤.

(٢) الياس شوفاني: مرجع سابق، ص ١٩٢.

منه، والتخلص من دفع الضرائب الباهظة التي كانت تفرض عليهم، وأملاً في التحرر من الظلم الإقطاعي والانعتاق من القنانة، وطمعاً في الحصول على ملكية جديدة، والجهلة منهم، رأوا فيها تطهيراً للذنوب الدنيوية التي ارتكبوها، وطلباً لمغفرة الكنيسة التي وعدهم بها البابا.

إن هذه العوامل مجتمعة، تخرج الدين المسيحي من دائرة الاتهام، لأنه دين محبة وسلام، وليس دين حرب وعدوان، إنما أستغل لتحقيق مآرب كل فئة من الفئات المشار إليها أعلاه.

كما أن مؤتمر كليرمونت ١٠٩٥ كان كل أهدافه، الإعداد لغزو المشرق العربي، والاستيلاء على فلسطين، وإقامة مملكة القدس اللاتينية، فإن المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد بزعامة تيودور هيرتسل سنة ١٨٩٧، كان كل أهدافه تهجير يهود العالم، الذين ينتمون إلى أعراق وثقافات مختلفة إلى فلسطين، وإقامة دولة يهودية (إسرائيل) فيها.

وكما نجح البابا أوربان الثاني في إضفاء الطابع الديني على مؤتمر كلير مونت، لتحقيق غايات سياسية وزمنية، فإن تيودور هيرتسل نجح أيضاً في إضفاء الطابع السياسي على المؤتمر الصهيوني الأول، متخذاً من الصهيونية الدينية مرتكزاً يساند

مشروعه السياسي، دون أن يظهر ذلك بشكل علني، وتتجلى هذه المساندة في كون الصهيونية الدينية استندت في دعواها إلى الوعد المزيّف الذي قطعه الرب «يهوه» لآباء اليهود بتمليكهم أرض كنعان (أي أرض فلسطين).

لقد استثمر تيودور هيرتسل الرؤية التي كانت الصهيونية الدينية قد روّجتها بين أوساط اليهود، هذه الرؤية التي استندت إلى أن اليهود اختارهم الله باعتبارهم «الشعب المختار»، وأنّ فلسطين هي «أرض الميعاد»، التي وعدهم بها إلههم «يهوه»، هذا الإله الذي كان كتبة التوراة هم الذين خلقوه، وأنطقوه بما يحقق أحلامهم وتطلعاتهم لتبرير الإستيلاء على «أرض الكنعانيين (فلسطين) أصحاب الأرض الشرعيين، وكما أنّ البابا أوربان الثاني حاول أن يصور مسلمي الأرض المقدسة بأنهم برابرة وكفار، فإن تيودور هيرتسل الذي يجمع بين النزعة العرقية العنصرية والارتباط العضوي بالإستعمار، حذا حذو البابا عندما صوّر الدولة اليهودية المزمع قيامها في فلسطين على «أنها سوف تشكل هناك جزءاً من متراس أوروبا في آسيا، يكون مخفراً أمامياً للحضارة ضد البربرية»[1]، لقد تناسى هيرتسل وأمثاله، أن

(١) الياس شوفاني: مرجع سابق، ص ٣٢٩.

الفلسطينيين، هم الذين بنوا المدن، ورفعوا المعابد، وغرسوا الكروم، قبل وعد «يهوه» بآلاف السنين، وبنوا العدالة بين الأفراد، وبينهم وبين السلطة على أساس من العدالة، وهم الذين سنُّوا القوانين، ودوَّنوا الشرائع، ورفعوا الصلوات إلى اللّه تعالى، وقد كانت شعوب فلسطين عريقة في الحضارة والقوة والعمران، قبل أن تطأ أقدام اليهود أرض فلسطين»(١).

ومن الدعاوى الباطلة التي استندت إليها الصهيونية اليهودية، تلك الوعود الخرافية التي أوردها كتّاب العهد القديم، ففي الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين، يخاطب الرب «يهوه» أبرام: «أقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك، في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك، ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم(٢).

---

(١) جورجي كنعان: وثيقة الصهيونية في العهد القديم، دار النهار للنشر، ط٢، ١٩٨٢.

(٢) كتاب العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر، بيروت، ١٩٥٠، ص ٢٤.

كما أن كتبة التوراة أرادوا تأكيد الوعد الذي، قطعه رب اليهود «يهوه» إلى إبراهيم، بأن تكون فلسطين ملكاً أبدياً له ولذريته من بعده، فقد أورد هؤلاء الكتبة وعد «يهوه» إلى كل من اسحق ويعقوب على النحو التالي:

«. . وكان في الأرض جوع، فذهب إسحق بن إبراهيم إلى أبي مالك، ملك الفلسطينيين... فظهر له الرب، وقال... تغرَّب في هذه الأرض... لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد، وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك»(١).

ثم ظهر الرب ليعقوب «إسرائيل» بن إسحق، مجدِّداً له العهد والوعد، وقال: «أنا يهوه، إله إبراهيم أبيك وإله إسحق الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك» (تكوين: ٢٨/ ١٣)(٢)، وإن هذا الوعد المزعوم يحمل سمات عنصرية، فقد جاء في سفر التثنية (١٤/ ٢): «لأنك شعب مقدس للرب إلهك. وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض».

---

(١) جورجي كنعان: مرجع سابق، ص ٣٥.

(٢) جورجي كنعان: مرجع سابق، ص ٣٥-٣٦.

كما أن الحركة الصهيونية، استفادت من الركائز الفكرية للصهيونية الدينية، هذه الركائز التي انطلقت من فكرة أساسية، تمثلت في معارضة الفكرة التي يؤمن بها عامة اليهود، والداعية إلى الاعتماد على «المسيح المنتظر» كي يقودهم صوب فلسطين، من أجل إقامة «مملكة إسرائيل»، حيث كان عامة اليهود يؤمنون أنَّ عودة «الشعب المختار» إلى الأرض التي وعدهم بها «يهوه»، ستتم هذه العودة على يد «يهوه القدير»، نفسه الذي سيرسل «المسيح المخلص»، للقيام بهذا العمل، وليس من عمل شعبه المختار، كما نادت الصهيونية»[1].

إن الصهيونية الدينية يَسَّرَت للصهيونية السياسية مشروعها، وذلك من خلال مناداتها -الصهيونية الدينية- بأنَّ على «الشعب المختار أن يبادر بالعودة إلى فلسطين تحت قيادة زعامة بشرية، دون أي انتظار للمسيح المخلص، كما دعت إلى إقامة مستوطنات يهودية في فلسطين كي تكون مقدمة لظهوره، وفي هذا السياق «أضفى الحاخام موشيه بن نحمان (١١٩٤-١٢٣٠) في تفسيره للتوراة طابعاً من القداسة على «أرض

---

(١) رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، عالم المعرفة، العدد ١٨٦، يونيو (حزيران)، ص٨٦.

فلسطين»، فاعتبرها «مركز العالم»، وأن «أورشليم» هي مركز «أرض إسرائيل»، وأن هذه الأرض هي المكان المناسب والوحيد لتأدية الوصايا الدينية المنصوص عليها في التوراة ... بل إنه اعتبر أن استيطان «أرض إسرائيل واجب ديني» يوازي كلَّ فرائض التوراة ... كما يلزم كل فرد يهودي بالهجرة إلى «أرض إسرائيل» والعيش فيها تمهيداً لمجيء المسيح المخلص»[1].

إنَّ الصهيونية السياسية التي تجلَّت في المؤتمر الصهيوني الأول، كانت قد أدركت كم أصبحت أساطير «شعب الله المختار»، والوعد الذي قطعه «يهوه»، و «المسيح المخلص»، راسخة في الوجدان الديني اليهودي، فعملت على توظيف هذه الأساطير في خدمة ما يسمى القومية اليهودية، والدولة اليهودية، سعياً إلى اكتساب الشرعية وتجنيد عامة اليهود، لتضفي على نفسها صبغة دينية، ولم تهتم الصهيونية فيما إذا كانت هذه الأساطير حقيقة أم لا، «بل المهم أن تكون سارية المفعول، حتى بعد أن ثبت أن الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ليس لها أي مصدر إلهي، ولذلك فإنها لا ترى ضرورة لإثارة ما إذا كانت

---

(١) رشاد عبد الله الشامي، مرجع سابق، ص ٨٦.

التوراة من أصل سماوي أو أرضي ما دامت تعبر عما يختزنه الوجدان الشعبي اليهودي[1].

بل إنّ «غولدا مائير»، رئيسة وزراء إسرائيل السابقة، صرحت لصحيفة لوموند الفرنسية في ١٥/ تشرين أول/ ١٩٧١، صرحت قائلة: «إن هذه البلاد (إسرائيل) موجودة نتيجة لوعد أطلقه الرب نفسه»، وبمثل هذه الاعتقادات، عدّ البعض الصهيونية أداة من أدوات الرب، فمن عصاها عصاه»[2].

* * *

---

(١) رشاد عبد الله الشامي: مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) مجموعة عائدون: قضية اللاجئين الفلسطينيين والقانون الدولي، أعمال ندوة دمشق، كانون الأول ٢٠٠٦، ص٨٣.

الفصل الثاني

الغزو الفرنجي
واصطناع مملكة بيت المقدس اللاتينية

الحملة الأولى واصطناع مملكة بيت المقدس اللاتينية:

تضافرت عوامل عديدة لبدء غزو الفرنجة للمشرق العربي، حيث كان المشرق العربي يعاني من التشرذم والاقتتال بين قواه الحاكمة، خلاف مذهبي عباسي فاطمي، وحروب بين السلاجقة والفاطميين للسيطرة على بلاد الشام وبخاصة فلسطين، كما أن الوجود الإسلامي في الأندلس كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بسبب الصـراع المرير بين ملوك الطوائف، إلى جـانب الخطاب الديني المحرض الذي ألقاه البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥، والذي جعل مسيحيي الغرب يتحرقون شوقاً لمحاربة المسلمين «الكفرة البرابرة» لتخليص القبر المقدس، واحتلال فلسطين التي تفيض «لبناً وعسلاً»، أما الإمبراطورية البيزنطية،

فقد توجهت إلى البابا أوربان الثاني مستغيثة بالغرب الأوروبي لحمايتها من السلاجقة المسلمين الذين سيطروا على معظم ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، وأصبح السلاجقة بعد انتصارهم على البيزنطيين في معركة «ملاذ كرد» سنة ١٠٧١م، يهددون باجتياح القسطنطينية، أما أمراء أوروبا وفرسانها وملوكها وتجارها، فرأوا في خطاب البابا أوربان الثاني الفرصة السانحة، لتحقيق أحلامهم بالاستيلاء على المشرق العربي للتحكم بموقعه الاستراتيجي، ونهب ثرواته، من خلال إقامة المستوطنات البشرية الغربية، ممثلة بالإمارات والممالك الفرنجية التي يتوقعون إلى زرعها في قلب المشرق العربي.

كل هذه العوامل تشابكت فيما بينها، وشكلت الأرضية التي انطلقت منها الغزوة الفرنجية الأولى، ففي أواخر صيف ١٠٩٦، تمكن البابا أوربان الثاني من حشد خمسة جيوش أوروبية، كان جلّها من فرنسا، وما إن وصلت هذه الجيوش إلى القسطنطينية، حتى دُهش الإمبراطور البيزنطي من كبر حجمها، وتخوَّف من أهدافها، حيث كان البابا أوربان الثاني يتطلع إلى توحيد الكنيستين الشرقية (الأرثوذكسية) والغربية (الكاثوليكية) تحت زعامته الدينية، فسارع الإمبراطور البيزنطي «اليكسوس كومنين» إلى تسهيل عبور قوات الصليبيين مضيق البسفور إلى

آسيا الصغرى، كما أنه زودهم بعدد من الأدلاء والمرشدين، كما ظلَّ يرسل إليهم المؤن والإمدادات عن طريق البر والبحر[1] محاولاً تفادي الدمار، والقتل، والنهب، والسلب، الذي شهدته بلاده على يد الحملة الشعبية (العامة) التي قادها كل من **والتر المفلس وبطرس الناسك**، والتي عاثت فساداً ودماراً في كل من البلدين المسيحيين (بلغاريا والمجر)، ولكنَّ هذه الحملة سحقت عن بكرة أبيها على يد المسلمين السلاجقة، وتأكيداً على وحشية هذه الحملة، كتب المؤرخ جيبون: **«إن الحملة التي قادها بطرس الناسك، لم تكن إلا خليطاً من آدميين متوحشين، لا عقل ولا إنسانية لهم»** [2].

وفي السادس من شهر مايو (أيار) سنة ١٠٩٧ وصلت جيوش الفرنجة أمام مدينة نيقية في آسيا الصغرى، التي كانت في ذلك الحين عاصمة دولة سلاجقة الروم، وفي التاسع عشر من شهر يونيو (حزيران) ١٠٩٧م استسلمت المدينة [3]، وكان النصر الساحق الذي أحرزه الفرنجة حافزاً قوياً دفع بالفرنجة على مواصلة الزحف نحو بلاد الشام وصولاً إلى فلسطين.

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ١٢٣.
(٢) محمد علي الغتيت: الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلي حرب السويس، مطابع الدار القومية، القاهرة، ص ٣٥.
(٣) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ١٢٣.

لقد بُهت المسلمون بوصول القوات الصليبية ولكنهم كانوا قادرين على إبادتها، بيد أنَّ ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة، والذي غرسته وأنبتته طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة قوات الصليبيين »[1].

إنَّ المقاومة التي لاقاها الفرنجة، والتي كانت تقترب من حرب العصابات، لم تثنهم عن متابعة زحفهم، فاستولوا على الرُّها في سنة ١٠٩٨، وأسَّسوا فيها أول إمارة فرنجية في المشرق العربي، وفي يونيو/ حزيران سنة ١٠٩٨م، استولوا على انطاكية، وأسسَّوا فيها الإمارة الفرنجية الثانية على أرض المشرق العربي.

والمثير للدهشة، أنه في أثناء حصار الفرنجة لأنطاكية، أرسل الفاطميون وفداً إلى الفرنجة «يفاوضهم على ترك احتلال شمال الشام لهم، مقابل ترك جنوبه للفاطميين ... ووعد الفاطميون بمعونة الفرنج بالمؤن والرجال»[2]، إنَّ ما فعله الفاطميون يدلّل على قصر نظر، دفع الفاطميون نفسهم ثمنه، كما دفعه المشرق العربي برمته.

---

(١) قاسم عبده قاسم : مرجع سابق، ص٤٠.

(٢) شاكر مصطفى ، الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق ، ص ٣٦٧.

اتجه الفرنجه بزحفهم صوب بيت المقدس (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٠٩٨)، وفي أثناء زحفهم «مرّوا بمعرة النعمان، فقاموا بمذبحة مزلزلة حتى اختلط الزيت المخزون في الآبار فيها مع الدماء والجثث»[١] ، وتابع الفرنجة زحفهم متخذين من الساحل السوري الطريق المؤدي بهم إلى فلسطين، فدخلوا طرابلس، ثم بيروت فصيدا وصور، وتابعوا المسير أمام عكا وحيفا، ثم قيسارية، ثم أرسوف، وعند أرسوف توجه الجيش الزاحف نحو الداخل فوصل الرملة (٣ حزيران / يونيو سنة ١٠٩٩)، وكانت الحاضرة الإدارية لإقليم فلسطين قبل الغزو السلجوقي، وفي مساء الثلاثاء (٧يونيو/ حزيران ١٠٩٩م)، عسكر الجيش الفرنجي بمجموعه أمام المدينة المقدسة التي كانت تحت حكم الفاطميين»[٢] .

واجه الفرنجة مقاومة عنيفة استمرت أربعين يوماً، وفي يوم الجمعة (١٥ تموز / يوليو ١٠٩٩)، تمكن الفرنجة من اقتحام بيت المقدس، وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة في

---

(١) قاسم عبده قاسم : مرجع سابق، ص٤٠ .
(٢) شاكر مصطفى ، الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق ، ص ٣٦٧.
(٣) شاكر مصطفى ، الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق ، ص ٣٦٨.
(٤) شاكر مصطفى ، الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق ، ص ٣٦٨.

شوارع القدس عدة أيام »[1]، ولم يسلم مسيحيو القدس من تلك المذابح، ومن أعمال السلب والنهب، فقد استولى الفرنجة على أديرتهم، وطردوهم من كنائسهم وبيوتهم، فاضطر البطريرك إلى الهرب إلى القاهرة، ليعيش في حماية الفاطميين، وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني/ ديسمبر ١١٠٠، أعلن عن قيام «مملكة بيت المقدس اللاتينية»، وكانت هذه المملكة في ذلك الحين تتكون من مدينة بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا، واللد، والرملة، وبيت لحم، والخليل، كما كان لها ظهير ريفي تسكنه أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين »[2].

وهكذا أسفرت الحملة الأولى عن قيام إمارتين صليبيتين في الرُّها وأنطاكية ودولة صغيرة في القدس لم تلبث أن تحولت إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية في سنة ١١٠٠م، ثم تأسست إمارة أخرى في طرابلس سنة ١١٠٩م.

أدرك الفرنجة أنَّ بقاء الساحل الفلسطيني خارج نطاق سيطرتهم يشكل خطراً جسيماً على وجودهم، ويحول دون وصول الإمدادات القادمة إليهم من أوروبا، والتي بدونها تذوي المملكة اللاتينية التي أقاموها في بيت المقدس، لذا، احتل الفرنجة

---

(١) قاسم عبده قاسم : ص١٢٩.
(٢) قاسم عبده قاسم : مرجع سابق، ص١٣٠.

فيما بعد معظم الساحل الفلسطيني، ما عدا عسقلان التي كانت قاعدة متقدمة للفاطميين، وكان من الممكن القضاء على الاحتلال الإفرنجي، لولا العداء الفاطمي السلجوقي، الذي يسَّر للغزاة الفرنجة الفرصة المواتية للتوغل في بلاد الشام، واحتلال معظمها، صحا الفاطميون على هذه الحقيقة، وأدركوا أنَّ حملات الفرنجة ليست حملات عابرة، إنَّما حملات احتلال واستيطان، فاتخذ الفاطميون من عسقلان قاعدة انطلاق لمقاومة الفرنجة، فتنبه الفرنجة إلى الخطر الذي يتهددهم طالما ظلَّت عسقلان بيد الفاطميين، فلجأوا إلى «إقامة عدد من الحصون الدفاعية لصد الهجمات الفاطمية... فبنوا قلعة بيت جبرين، على الطريق إلى الخليل (١١٣٧م)، وقلعة يبنى على الطريق إلى يافا والرملة (١١٤٤م)، كما بنوا قلعة الصافي على الطريق إلى القدس(١١٤٤م)، وفي سنة (١١٥٠م) أقاموا قلعة في غزة، وأخرى في دير البلح» [(١)]، «وقد أحصى الإدريسي أثناء تجواله في ساحل الشام أكثر من ستين حصناً ما بين بيروت واللاذقية» [(٢)].

لم يقف الفرنجة عند حدود الدفاع عما احتلوه، بل راحوا يوسعون عدوانهم الاحتلالي، فوصلوا حوران والجولان،

---

(١) الياس شوفاني: مرجع سابق، ص ١٩٨..

(٢) منذر الحايك: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، ج ٢، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٦، ص ٢٣١.

واحتلوا أيلة (العقبة)، كما استولوا على الكرك، وبذلك، تمكنوا من فرض سيطرتهم على تقاطع الطرق الاستراتيجي بين سورية وكل من مصر والجزيرة العربية، ولم يكتف الغزاة بذلك، بل سعى ملوك بيت المقدس اللاتينية إلى إبقاء الغرب الأوروبي في حالة تحريض وتجييش، فتوالت على المشرق العربي - بعد الحملة الأولى - ست حملات عدوانية، تستهدف تثبيت المملكة اللاتينية. والحيلولة دون انهيارها ولتحقيق ذلك، بنت **تلك الحملات العدوانية استراتيجيتها على أساس احتلال مصر، أو تحييدها على الأقل، كما عملت على إضعاف جبهة بلاد الشام بغزوها تارة، وبالتحالف مع بعض حكامها المتناحرين فيما بينهم تارة أخرى، كل ذلك من أجل إبقاء حالة التوتر في المنطقة، وتشجيع الإقتتال فيما بين الحكام، ومناصرة أحدهم على الآخر، وبهذه السياسة يكون الفرنجة قد حاولوا منع قيام جبهة عربية إسلامية موحدة، تضم جبهة الجنوب في مصر، وجبهة الشمال في بلاد الشام، إلى جانب زعزعة الثقة بإمكانيات الأمة العربية، وتحطيم معنوياتها، بما يكفل لملكة بيت المقدس اللاتينية الهيمنة والسيطرة على المنطقة،** ويعلق مؤرخ الحروب الصليبية «ستيفن رنسيمان» على النجاح السريع الذي أحرزه الفرنجة، بقوله: **«.. إنّ السبب الأكبر في نجاح الصليبيين أول الأمر، لم يرجع فحسب إلى كثرة أعدادهم، وإلى**

مـا تلقوه من مساعدات من الغرب المسيحي ومن الدولة البيزنطية، بل يرجع أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن ـ »[1].

المجازر التي ارتكبها الفرنجة:

بعد احتلال الفرنجة لبيت المقدس، أجروا فيها مذبحة، صارت حديث التاريخ، وقدر عدد ضحاياها بسبعين ألفاً، وأن الفرنجة خاضوا فيها الدماء حتى كعوبهم، وحتى ركبهم وظلت الجثث أكواماً في الطرقات حتى جافت المدينة[2].

«ولم يختلف إثنان، لا من الفرنجة ولا من المسلمين، في استفظاع المنكرات التي اقترفها الصليبيون، تلك المنكرات التي أقل ما قيل عنها إنه يندى لها جبين الدهر، وإنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذي زعموا أنهم جاءوا لنصرته . . »[3].

وتأكيداً على فظاعة ما ارتكبه الفرنجة من مجازر وحشية، فإن «**غوستاف لوبون**»، يقول: «لقد أفرط قومنا من سفك الدماء... وكانت الجثث تسبح في محيط من الدماء، ولم يكتف

---

(١) ستيفن رنسيمان، ترجمة السيد الباز العريني: تاريخ الحروب الصليبية، دار الثقافة، ص٢، بيروت، ١٩٨١، ص٧.
(٢) شاكر مصطفى، الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٣٦٩.
(٣) عارف العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ص ٧٣.

قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب التعسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها، بل عقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم (٦٠) ألفاً، فأفنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً»[١].

وفي هذا السياق، يصف «Wells» تلك المجازر، بقوله: «حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة، وكان دم المقهورين يجري في الشوارع، حتى كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون..»[٢].

ولم يختلف «ابن خلدون» في وصفه للمجازر التي ارتكبها الفرنجة عما أورده كل من «لوبون» و«Wells»، إذ يقول: «استباح الفرنجة بيت المقدس، وأقاموا في المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون، وأحصي القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعبّاد والزهّاد والمجاورين، فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون»[٣].

حملة الفرنجة الثانية:

إن انشغال الحكام في كل من مصر وبلاد الشام بالمنازعات فيما بينهم، حرصاً على بقائهم في الحكم، أتاح للفرنجة فرض

(١) أحمد شلبي: مرجع سابق، ص ٧٣٥.
(٢) أحمد شلبي: مرجع سابق، ص ٧٣٦.
(٣) أحمد شلبي: مرجع سابق، ص ٧٣٦.

سيطرتهم على البلاد التي احتلوها، «بيد أنَّ العالم الإسلامي بدأ يشهد ظاهرة إيجابية جاءت هذه المرة من بين جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأي عام قوي وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام، وأنانيتهم، وضيق أفقهم الذي ضيع البلاد وأذلَّ العباد، فقد أخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد في فضل القدس الشريف، وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ... ومن ناحية أخرى أثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج الشهيرة الاستياء والغضب في كل مكان ذهب إليه اللاجئون، لقد أدرك المسلمون أنَّ الصليبيين قد جاءوا إلى بلادهم بقصد البقاء، وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة»[1] .

وتحت تأثير حركة رأي عام ضاغطة، تصاعدت مطالبة الناس بمقاومة الاحتلال الفرنجي، ونتيجة ذلك، تبلورت حركة المقاومة العربية الإسلامية ضد الفرنجة، وفي ظل هذه التعبئة الجهادية، ظهر الأتابك **عماد الدين زنكي بن آقسنقر** (١١٠٠-١١٤٦) «الذي دانت له الموصل سنة ١١٢٧م ليقود حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية ... وما لبث عماد الدين زنكي أن صار

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ١٣٤ .

أقوى حاكم مسلم في زمانه لأنه طوّع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام ضد الصليبيين»[1] .

استشعر عماد الدين زنكي بحس الحاكم المسؤول إرادة المقاومة لدي النخبة من الفقهاء، والعلماء ، وجماهير الناس العاديين، فسارع إلى تلبية هذه الإرادة التي تمكنه من التصدي للمحتلين الفرنجة، فبادر بالقضاء على النعرات الانعزالية في كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة (الفرات الشرقية)، وتمكن من ضمُ حلب، وحرّان ونصيبين، وحماة، وحمص، وبذلك نجح في توحيد الإمارات المبعثرة في إمارة كبيرة متحدة، يقودها ملك مقاتل، استطاع أن يهيئ الأرضية لطرد الفرنجة من المشرق العربي بعد فشل كل من الخلافتين العباسية والفاطمية في المواجهة ولاالتصدي.

ففي سنة ١١٤٤م حقق عماد الدين زنكي أول ضربة قاصمة للفرنجة، عندما نجح في تحرير الرُّها، التي كانت أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي، إن تحرير الرُّها، عزز المطالبة بتوحيد الجهود العربية الإسلامية، ونبذ الخلافات، ومحاصرة النعرات الانعزالية .

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

لم يمض على سقوط الرُّها إلا سنتان حتى اغتيل (الشهيد أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل وبلاد الشام ومدينة الرُّها وبلاد الفرات الشرقية»[1]، فخلفه في الحكم ابنه **نور الدين محمود الملك العادل** (١١٤٦-١١٧٣)، الذي اشتهر بالكفاية والمقدرة.

لقد هال الغرب الأوروبي سقوط الرُّها، فتضافرت جهود البابوية مع ملوك الغرب، فسيَّروا حملة جرت أحداثها فيما بين سنة ١١٤٥م وسنة ١١٤٩م، فكان على رأس هذه الحملة كل من لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا، وقد فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعاً في استرداد الرُّها، وإن هذا الفشل شجَّع نور الدين محمود على معاودة هجماته ضد الفرنجة، «وفي سنة ١١٥٠م، فتح ما تبقى في يد الصليبيين من إمارة الرها... واستولى على مدن عديدة تقع في شرق إمارة إنطاكية» [2]، وفي سنة ١١٥٤م، نجح في دخول دمشق برغبة أهلها الذين سئموا ظلم حاكمهم، الذي عجز عن التصدي للفرنجة الذين كانوا «يغيرون عليها وينهبون الأهالي حتى جعلوا على المدينة أتاوة سنوية يأخذونها»[3].

(١) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص ٧٦.
(٢) أرنست باركر: مرجع سابق، ص ٧٧.
(٣) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص ٩٠.

وبذلك استكمل نور الدين ما بدأه والده عماد الدين زنكي، فتمّ على يديه **توحيد القوى العربية الإسلامية في الجبهة الشمالية- التي زادت من تضييق الخناق على الفرنجة.**

توجهت أنظار كل من نور الدين محمود والفرنجة نحو مصر، أما نور الدين فقد كان يرى في مصر الثقل العربي الإسلامي الذي يجب أن يضمه إلى جانبه للتغلب على الفرنجة ودحرهم، أما الفرنجة فقد أدركوا أنّ من يسيطر على مصر، يحسم المعركة لصالحه، والذي زاد في طمع الفرنجة في مصر، أحوالها المتردية، «إذ كانت الخلافة الفاطمية في الطور الأخير من عمرها عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ أنهكتها الكوارث الطبيعية، والمنازعات الداخلية»(١)، فأصبح الخلفاء ألعوبة بيد الوزراء الذين سرّعوا في تدهور الخلافة الفاطمية وانهيارها.

ولإحداث توازن قوي في الصراع مع الجبهة الإسلامية الشمالية التي يقودها نور الدين محمود، تطلع الفرنجة إلى احتلال عسقلان، ورغم ضعف الدولة الفاطمية في مصر، إلا أنهم كانوا يتخذون من عسقلان الفلسطينية حصناً منيعاً يحول دون تمكين الفرنجةمن النفاذ منه إلى مصر، وظلت عسقلان «تتحدى في

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ١٣٨.

سخرية الملوك الذين تعاقبوا على حكم المملكة اللاتينية»[1]، حتى سنة ١١٥٣م، حيث تمكن الفرنجة من الاستيلاء عليها، وفي هذا السياق يقول المؤرخ «رنيسمان»: «يعتبر الاستيلاء على عسقلان آخر ما أحرزه ملوك بيت المقدس من انتصارات باهرة، وبفضله ازدادت مكانتهم ارتفاعاً إذ أن الفوز، آخر الأمر بالمدينة المعروفة بعروس الشام يعتبر من الإنجازات التي ذاع صيتها، وتردد صداه، وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطيني كله للصليبيين إلا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى، وبذلك تمت موازنة الهزائم التي لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية»[2].

بعد سقوط عسقلان - القاعدة الأمامية لمصر - بيد الفرنجة، ازداد ضعف الدولة الفاطمية، فاضطرت أن تعقد هدنة مع الفرنجة لمدة أربع سنوات، وفي سنة ١١٥٧م، تولى «طلائع بن رزيك» - الملقب بالصالح- الوزارة، وأخذ في مناوشة الفرنجة على شكل حرب عصابات، وفي سنة ١١٦١م، «قتل طلائع بن رزيك ... في مؤامرات البلاط الفاطمي، تاركاً مصر الفاطمية لمهب الريح، في

(١) أرنست باركر: مرجع سابق، ص ٧٨.
(٢) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ١٣٩.

صـراع مـرير على تولـي الوزارة بين الوزيـرين المتطاحنين : شـاور وضرغـام، وفي وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية في أسوأ فترات الضعف»[1] .

ولما تمكن ضـرغـام من الوزارة، هرب شـاور إلى بلاط نور الدين محمود، وطلب معونته في تسيير جيش إلى مصر، متعهداً لنور الدين مـحـمـود أن يعتـرف له بالسلطة على مـصر، غيـر أن التنافس على الحكم أعمى بصيرة ضرغام الذي كان مناوئاً للفرنجة ومتصدياً لهم، وبدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فما كان منه إلا أن استنجد بالفرنجة مستقوياً بهم، **«ودخلت مصر بسبب هذا الصراع في عملية انقلاب سياسي صار فيه الفرنج حكماً في الحوادث الداخلية بمصر، وعنصراً من عناصر اللعب بالوضع السياسي في القاهرة نفسها، وبعد أن كانت خيل مصر وجيوشها وأسطولها تخوض أرض فلسطين، صار الفرنج هم الذين يخوضون أرض مصر ويتحكمون في موازينها السياسية المحلية»**[2].

رأى نور الدين محـمـود في مساندة الوزير شـاور الفرصة المواتية التي تمكنه من تخليص مصر من هيمنة الفرنجة، واستعادتها كجبهة إسلامية جنوبية، تشكل مع شقيقتها الجبهة الشمالية فكي

---

(١) شاكر مصطفى : الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٣٨٦.
(٢) شاكر مصطفى : الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

كماشة تطبق على الفرنجة، «فاستجاب نور الدين محمود لطلب شاور، وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شركوه، وبرفقته شاب في السابعة والعشرين من عمره هو ابن أخيه **صلاح الدين الأيوبي**»[1].

لم يتردد الفرنجة بقياد أماليك الأول (عموري) في حشد الجيوش لمواجهة نور الدين، فشهدت أرض مصر معارك عنيفة، قتل في أثنائها الوزير ضرغام على يد أبناء مصر الذين ساءهم استنجاده بالفرنجة، وتولى الوزارة شاور الذي لم يلبث أن نقض عهده مع نور الدين، فارتكب الخطيئة نفسها التي ارتكبها من قبله ضرغام، فاستنجد بالفرنجة، فلم يكن مصيره بأفضل من مصير سلفه الوزير ضرغام، ففي سنة ١١٦٩م، قتل الوزير شاور بأمر من أسد الدين شيركوه، وبموافقة الخليفة الفاطمي العاضد، فتقلد شيركوه الوزارة، ولقب بالملك المنصور، وفي السنة نفسها توفي شيركوه فتسلم «الوزارة ابن أخيه صلاح الدين - ولقب بالملك الناصر - مسجلاً بدء مرحلة جديدة وأخيرة في الموقف الإسلامي من الفرنج»[2]، وفي السنة نفسها (١١٦٩م) حاول افرنجة احتلال مصر، فحاصروا دمياط، ولكن صلاح الدين تمكن من دحرهم،

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٤١.
(٢) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٣٨٧.

وبذلك يكون صلاح الدين قد دعم حكمه، ووطده، واطمأن على سلامة مركزه السياسي، «وفي هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء، فيها خمس عـــواصم هي: دمـــشق، والرُّها، وحلب، والموصل، ثم القاهرة»[1].

أيقن صلاح الدين أنه لم يبق للخلافة الفاطمية من مجد سوى ماضيها الغابر، وأن الخليفة الفاطمي لا يملك من السلطان سوى لقبه، فلذلك قام في (١٠/ سبتمبر/ ١١٧١م) بإلغاء الخلافة الفاطمية، ليس فقط استجابة لرغبة نور الدين محمود، وإرضاءً للخليفة العباسي في بغداد، وإنما أيضاً سعياً منه لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية استعداداً لتحرير الأرض، وطرد الغزاة الفرنجة.

وفي سنة ١١٧٤م، توفي الملك العادل نور الدين محمود، **«الذي كان شجاعاً، باسلاً، فاضلاً، باراً وكان محبوباً معتبراً عند المسلمين والصليبيين أعدائه»**[2]، تخوف صلاح الدين من احتدام المنازعات بعد وفاة نور الدين محمود، فأعلن- في سنة ١١٧٥م- نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسي، إن ما يتمتع به صلاح الدين من مواهب في القيادة، وإيمان بضرورة الحفاظ

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٤١.

(٢) عصام بارو: مرجع سابق، ص ١٢٠.

على وحدة الجبهة الإسلامية، جعلته يعالج المنازعات والصراعات التي نتجت عن وفاة نور الدين محمود بحزم ورزانة، لقد قضى صلاح الدين «من حكمه بعد سنة ١١٧١م ست عشرة سنة ومملكة بيت المقدس سالمة لم تنقص ممتلكاتها إلا قليلاً: لكنه قضى هذه السنوات كلها وهو يُعد ويُثبت وسائل النصر: جواسيس لدى العدو، علاقات دبلوماسية مع الأطراف المختلفة، غارات تأديبية، حرب على أنانيات الحكام ... تنمية للموارد والتجارات وتنظيم للجيش، خنق للمؤامرات ... هزيمة للتحالفات المناوئة ... كل ذلك دون إغفال للجبهة الفرنجية التي كان مهادناً لها تارة، ومحارباً لها أخرى»[١]، وبفضل هذه السياسة الحكيمة أقام جبهة إسلامية موحدة تمتد من أقصى برقة إلى اليمن إلى أقصى الجزيرة حتى الموصل.

أدرك الفرنجة أن سياسة صلاح الدين التي تقوم على تمتين وحدة القوى العربية الإسلامية، تشكل خطراً داهماً على وجودهم، لذلك قاموا بمحاولات عديدة للنيل من استقرار مصر، ولزعزعة مركز صلاح الدين السياسي، فشنوا حملات علي مصر والجزيرة العربية، كما حاول أمير الكرك رينالد دي شاتيون (أرناط) غزو مكة والمدينة، وجميع هذه المحاولات باءت بالفشل.

---

(١) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع ابق، ص ٣٨٨.

موقعة حطين ١١٨٧م وتحرير بيت المقدس:

بعد أن اطمأن صلاح الدين إلى تماسك ووحدة الجبهة العربية الإسلامية- والتي تضمنها دولة واحدة- وإلى الاستعدادات التي أنجزها في المجالات كافة، عزم على البدء في حروبه التحريريه التي طال انتظاره لها، وقد توّجها بانتصاره العظيم على زهرة جيوش الفرنج في معركة حطين في(٤/ يوليو/ ١١٨٧م)، فلقد فقدت مملكة بيت المقدس اللاتينية قواتها الرئيسة في هذه المعركة [١].

لم تكن حطين بالنسبة إلى الصليبيين كارثة حربية فقط، ولكنها كانت أيضاً المعركة الحاسمة ضد أكبر حركة استعمارية شهده العالم قبل العصور الحديثة[٢]، فقد تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي.

إن الأهمية التاريخية لمعركة حطين، تكمن في أنها حسمت الموقف بين المسلمين والفرنجة، فأثبتت حق الأولين نهائياً في أرضهم، وأنهت بالمقابل أحلام التوطين والتأقلم مع الشرق لدى الآخرين، وأفهمت فرنج الغرب والشرق- ولو جاء ذلك متأخراً- إن الدولة المصطنعة التي زرعت في أرض ليست أرضها، والتي تعيش على

---

(١)قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٤٣ .

(٢) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤٠٩ .

استقدام السكان ،وتلقي الدعم المادي من مال وعتاد وسلاح، لا يكتب لها الاستمرار والديمومة، ولا بد أن تسقط في اللحظة التي ينقطع فيها هذا الدعم» (١).

إن هزيمة الفرجة في حطين أدت إلى انهيار مملكة بيت المقدس اللاتينية مرة واحدة وإلى الأبد، كما انهارت مستوطنات الفرنجة وقلاعها وحصونها، واستسلمت الواحدة تلو الأخرى، وبذلك تم تحرير : عكا ، ويافا، وبيروت، وجبيل، وعسقلان، وغزة وكتب صلاح الدين قائلاً : **«ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يَسَّرَ الله تعالى فتح القدس، ملنا إلى صور والسلام»**(٢) **، وبعد حصار قصير دخل الناصر صلاح الدين الأيوبي المدينة المقدسة في (٢/ أكتوبر / ١١٨٧م)، وأقيمت خطبة الجمعة في المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلاً** (٣).

إن سماحة الإسلام، وقيمه الأخلاقية والحربية، حالت دون تقتيل الفرنجة المهزومين وأسراهم، رغم ما ارتكبوه من

---

(١) شاكر مصطفى : الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤٠٩ .
(٢) محمود إبراعيم: حطين بين أخبار مؤرخيها، وشعر معاصريها، دار البشير ، عمان، ط١ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٦ .
(٣)قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٤٣ .

مذابح وحشية إبان احتلالهم القدس سنة ١٠٩٩م، بل إن الناصر صلاح الدين سمح لهم بالخروج من القدس محمَّلين بأموالهم وأمتعتهم، «وبقي في المدينة جانب كبير من المسيحيين الوطنيين (الأرثوذكس) الذيم كانوا يجاهرون بأنهم يفضلون حكم المسلمين على حكم الفرنج»[١]، **ويؤيد المؤرخ «رنسيمان» سماحة الإسلام بقوله: «الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والرنسانية، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحلّ بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين»**[٢]، وبتحرير بيت المقدس، «لم يتبق بأيدي الصليبيين سوى: صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام[٣].

حملة الفرنجة الثالثة:

سجل المؤرخون لصلاح الدين كل الفخر والإعتزاز والتسامح وروح الفروسية النابع من قيم الإسلام، كما سجلوا

(١) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤١٠.
(٢) ستيفن رنسيمان: مرجع سابق، ص ٦٥٢.
(٣)قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٤٤.

أيضاً هفوة واحدة، هي أنه لم يفتح مدينة صور[1]، لانشغاله باستكمال تحرير بقية القلاع والحصون في بلاد الشام، فكانت صور رأس الجسر البحري الذي عبرته حملة الفرنجة الثالثة، مما جعل النضال ضد الفرنجة، يمتد إلى مائة سنة أخرى.

اتخذ الفرنجة من صور منطلقاً لحملتهم الثالثة التي جاءت رداً على هزيمتهم في حطين، والتي أحدثت زلزالاً في أوروبا الدينية والعلمانية، وقد قيِّض لهذه الحملة أن يشارك فيها أربعة ملوك: الإمبراطور الألماني، وملك إنكلترا، وملك فرنسا، وملك صقلية، وتعرف هذه الحملة بـ **«ضريبة عشر صلاح الدين»**، لأن أوروبا فرضت هذه الضريبة على كل من لا ينهض لحمل الصليب، لذلك، فإن هذه الضريبة هي التي دفعت عدداً كبيراً من الفرسان والأمراء والمحاربين إلى الاشتراك في الحملة هرباً من دفع الضريبة، ورغبة في غنائم الشرق أكثر من الغفران[2]، ولهذا تعدُّ الحملة الثالثة من أكبر حملات الفرنجة وأعظمها عدداً وعدة.

تناوب الطرفان: الفرنجة وصلاح الدين، الهزيمة والانتصار، وعانى الطرفان من هول المعارك الطاحنة والحصار

---

(١) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤١٠.

(٢) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤١٢.

والجـوع والعطش مـا لا يوصف، ورغم صـمـود صـلاح الدين ومقـاومتـه، إلا أنّ الفرنجة تمكنوا من استـعـادةاحتـلال عكا، مما أضـعف من مـوقف المسلمين الذين لم يتـمكنوا من الحيلولة دون سقـوط: حـيفـا، وأرسـوف بيـد الفـرنجـة، ودخل الطرفـان في مفاوضات سرية منذ أوائل تشرين الثاني / نوفمبر ١١٩١م، «وأنّ ملك إنكلتـرا **«ريتـشـارد قلب الأسد»** بدأها طالبـاً الصلح لأن المسلمين والفـرنج هلكوا، وخـربت البـلاد، وخـرجت من يد الفريقين، لكنه اشترط إعادة مملكة القـدس كرّة أخرى، فرفض صلاح الدين عرضه كله، قائلاً: القـدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا كما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا فلا نتصور أن نتزل عنه، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد، فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت»[١] .

أيقن كل طرف أنه لا يستطيع أن يحسم المعركة لصالحه، بسبب ما أصابهما من خسـائر، فانتهت المفاوضات **بعقد صلح الرملة (٢ أيلول / سبتمبر١١٩٢م)**، وبموجبه يكون للفرنجة المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها حيفا وقيسارية وأرسوف، ويتم اقتسام اللد والرملة مناصفة، وتكون عسقلان للمسلمين، وقد

---

(١)محمود إبراهيم: مرجع سابق، ص ٤٩ .

نصَّ الاتفاق على منح الفرنج حرية الحج إلى الأماكن المقدسة في القدس دون مطالبتهم بأي ضريبة، ومدة الهدنة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تنتهي آخر سنة ١١٩٥م[1]، وأعلن صلاح الدين في النهاية «أنَّ الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل»[2]، **إن الصلح الذي عقده صلاح الدين كان مقيَّداً بمدة زمنية محددة، ولم يكن صلحاً نهائياً، بل أراده صلحاً مؤقتاً يوفر له الفرصة لاستعادة تنظيم الجبهة الداخلية، ولحشد الإمكانيات اللازمة لمعاودة معركة التحرير.**

بعد أن وقع صلاح الدين هذا الصلح، عاد إلى دمشق، وفيها انتقل إلى جوار ربه **في (٤ مارس/ آذار ١١٩٣م)، إن التاريخ يسجل لصلاح الدين مواقفه التي لا تمحى من ذاكرة الشعوب الساعية لنيل حريتها واستقلالها، وهو بالنسبة إلى الأمة العربية والإسلامية البطل المجاهد الذي بنى الجبهة العربية الإسلامية الموحدة، والذي صان وثبت الإسلام والعروبة في فلسطين.**

حملة الفرنجة الرابعة (١٢٠٢- ١٢٠٤):

تنفس الفرنجة الصعداء بموت صلاح الدين، **وذلك أن وفاته أدَّت إلى تفسخ دولة الوحدة إلى قطع متناثرة، فابنه الأفضل أصبح**

---

(١) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤١٤.
(٢) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص ٤١٤.

ملكاً على دمشق وسورية الغربية، وابنه الظاهر غدا ملكاً على حلب وسورية الشرقية، أما ابنه العزيز فقد تولى مصر، فتفتتت دولة الوحدة إلى ثلاث دويلات متناحرة، ومتنازعة، فالتقط الفرنجة أنفاسهم بغياب من كان يؤرق وجودهم، فانعقدت آمالهم على استقدام حملة صليبية جديدة من أوروبا لإنقاذهم.

أدرك العادل (أخو صلاح الدين)، أنَّ تفتيت دولة أخيه يحول دون استكمال تحرير الأرض العربية من المحتلين الفرنجة، لذا، فرض سيطرته على مصر وسورية، وأخذ يفرض نوعاً من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي، فتخوَّف الفرنجة أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوه أيام صلاح الدين، فنشط البابا والغرب الأوروبي لتجهيز حملة للاستيلاء على مصر تمهيداً لاسترداد مملكة بيت المقدس اللاتينية[1].

وفي سنة ١٢٠٢م، اتجهت الحملة صوب سورية، وفي أثناء طريقها، دخلت القسطنطينية، فأعملوا في مسيحييها «القتل والنهب، وصاروا يقتلون وينهبون ... حتى كنيسة آيا صوفيا نفسها أحرقوا جميع ما فيها»[2]، فتقاعسوا عن مواصلة المسيرة نحو سورية، واكتفوا باحتلالهم بلاد الروم، وهكذا انتهت هذه

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٤٧.
(٢) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص ٢٢٤.

الحملة دون محاربة أو قتال المسلمين، فأدرك ملك عكا الإفرنجي استحالة قدوم حملة جديدة، فسارع في أواخر ١٢٠٤ إلى عقد **هدنة مدتها ست سنوات مع الملك العادل الذي رأى في هذه الهدنة فرصة مواتية لتسوية متاعبه الداخلية مع بقية أفراد البيت الأيوبي.**

حملة الفرنجة الخامسة (١٢١٧- ١٢٢١م):

أخذ البابا وملوك أوروبا يحشدون كل الإمكانيات، فجهزوا حملة، تستهدف احتلال مصر لضمان بقاء مستوطنات الفرنجة من ناحية، واسترداد الشرف العسكري الذي تمرَّغ بهزيمة حطين، وفقدان القدس، من ناحية أخرى[١] .

شنَّ الفرنجة هجوماً مباغتاً ضد مصر في جيش ضخم لم تشهد له بلاد الشام مثله منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، فحاصروا دمياط، وفي أثناء ذلك، توفي الملك العادل [٢]، فاعتلى سدة الحكم ابنه الملك الكامل، فحشد الجيوش وقاتل الفرنج قتالاً شديداً، ومع ذلك سقطت دمياط، فلجأ الكامل إلى المنزلة، وأخذ في تحصينها ليحول دون دخول الفرنجة القاهرة، ولما رأى أنَّ

---

(١)قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٥١ .

(٢) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص ٢٣٢ .

جيشه غير قادر على الصمود أمام الفرنجة، اقترح عليهم الجلاء عن مصر مقابل أن يأخذوا الصليب المقدس، وأن يملكوا مدينة القدس، ولكن الفرنجة رفضوا، وأصروا على احتلال مصر كلها، ولكنّ الملك الكامل استنفر كافة المصريين، واستنجد ببلاد الشام فلم يخذلوه، فصمّم على الصمود والمنازلة، فوظّف كل المواهب المصرية القتالية، فأغرق الأرض المحيطة بالفرنجة بمياه النيل، فانقطعت السبل عن الفرنجة، وبذلك حال دون وصول المدد إليهم، فضاقت بهم الحال، وندموا على رفضهم الهدنة، فطلبوا من الملك الكامل أن ينسحبوا من مصر كلها[1]، فأعطاهم الأمان الذي طلبوه، وتم لهم الإنسحاب في سنة ١٢٢١م، فأمر الكامل أن يصبح اسم المنزلة «المنصورة»، لأنها كانت السبب في الانتصار على الفرنجة.

حملة الفرنجة السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩):

قاد هذه الحملة الإمبراطور الألماني فردريك الثاني، فقدم إلى فلسطين على رأس جيش هزيل، قوامه ستمائة فارس فقط[2]، وجاءت نتائج هذه الحملة مثيرة للدهشة والاستغراب، حيث أنّ الملك الكامل وهو في أوج انتصاره، عقد مع الإمبراطور

---

(١) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص ٢٣٨.
(٢) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٥٤.

فردريك الثاني هدنة مدتها عشر سنوات «**على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطاً من الأرض يصل بين عكا والقدس ويبقى في حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفي المقابل يتعهد الرمبراطور فردريك الثاني بمنع أي حملة صليبية طوال عشر سنوات**»[١].

أثارت هذه الهدنة استياد العالم العربي الإسلامي، حيث كان رد الفعل عنيفاً ضد الملك الكامل، فقد أقيمت المآتم في مدن الشام وخاصة دمشق[٢]، وعلق **ابن الأثير** بقولة: «**واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه**»[٣]، لم يتقبل المسلمون هذه الهدنة التي اعتبروها تفريطاً في القدس دون حرب أو قتال، وثاروا ضد الكامل، «**ووصف المقريزي وأبو الفداء** مدى الأسى الذي أصاب المسلمين لسماع خبر تفريط الكامل بالقدس، **إذ ضجَّ المسلمون بالصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون إلى مخيم الكامل، فأذَّنوا أمامه في غير وقت الأذان تعبيراً عن الجلل الذي حدث... وتردَّد صدى ذلك في البلاد، واشتدت العظائم بحيث أن الناس أقامت المآتم، وانتشر التشنيع على الكامل في**

---

(١) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٥٥ .
(٢) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص ١٧٦ .
(٣) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٥٥ .

سائر الأقطار[1]، كما استنكر الفرنجة هذه الهدنة واعتبروها نفاقاً لحصول الإسلام على جامع شهير أمام قبر المسيح[2]، وفي سنة ١٢٣٩م، مات السلطان الكامل، فخلفه ابنه **الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٠م.**

حملة الفرنجة السابعة (١٢٤٨- ١٢٥٤م):

أصر الفرنجة على مواصلة استعداداتهم لاحتلال مصر، متهزين الحروب الأهلية والمنازعات التي اندلعت بين أفراد البيت الأيوبي في بلاد الشام ومصر، وفي غمرة هذه الأحداث، التقى الجيش المصري في سنة ١٢٣٩م مع الفرنجة في غزة، في معركة قاسية انتهت بهزيمة الفرنجة، فاستعاد المسلمون بيت المقدس، وكانت تلك الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس من أيدي الفرنجة، وفي سنة ١٢٤٩م، نزل الفرنجة قبالة دمياط بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع، وما لبثت أن سقطت بأيديهم دون أن يبذل المدافعون عنها أدنى مقاومة، فنقل السلطان الصالح نجم الدين أيوب معسكره إلى المنصورة، كما أنه أعدم عدداً من الفرسان

---

(١) شمس الدين الكيلاني، محمد جمال باروت: الطريق إلى القدس، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ص ٢٨٩.

(٢) سيد علي الحريري، عصام شبارو: مرجع سابق، ص٢٤٢.

الهاربين من أرض المعركة[1] ، ومن المنصورة انطلقت حرب عصابات أنهكت الفرنجة، وفي خضم هذه الأحداث توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في (٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٢٤٩م)، فأخفت زوجته «شجر الدر» نبأ وفاته حفاظاً على معنويات الجيش، وتولى الحكم ابنه «توران شاه»، أما الجيش فقد تولى قيادته المملوك «بيبرس البندقداري» فسارع بيبرس إلى تحصين المنصورة وتشديد الدفاع عنها، وفي سنة ١٢٥٠م دارت معركة رهيبة قرب فارسكور قضت على الجيش الصليبي تماماً، وتم أسر لويس التاسع نفسه... وأفرج عنه لقاء فدية كبيرة، مقابل الجلاء عن مصر[2]، أما على الجانب الإسلامي، فقد قتل «توران شاه» سنة ١٢٥٠م على يد المماليك، وبذلك، فإن الأحداث والتطورات أدَّت إلى قيام دولة سلاطين المماليك في مصر والشام، الذين أخذوا على عاتقهم مواجهة المغول والفرنجة، وحماية الوطن العربي من خطرهما الداهم، فتمكنوا من هزيمة المغول في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م، وأخذ وجود الفرنجة يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفي خضم هذه الأحداث، أدرك السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) أنَّ امتلاك القوة

(١)قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٥٧.
(٢)قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص١٥٨.

العسكرية وحدها لا تمنحه الشرعية، إلا إذا وظفت هذه القوة في مواجهة المحتلين الفرنجة، فنشط السلطان الظاهر بيبرس في توحيد مصر والشام، دون أن تلين قناته أمام الفرنجة، فاتّسمت سياسته تجاههم بالشدة والعنف، فتمكن من تحرير قيسارية، وأرسوف، وصفد، ويافا، ثم إنطاكية، وبذلك اكتسب الشرعية الشعبية، فاكتسب شهرة لا تقل عن شهرة الناصر صلاح الدين الأيوبي.

ولم يكن السلطان المملوكي **المنصور قلاوون** الذي اعتلى عرش مصر سنة ١٢٧٩م، أقلّ حماسة من سلفه، فصممّ على منازلة الفرنجة ومقاتلتهم، فحرر طرابلس وبيروت وجبلة، وفي سنة ١٢٩٠م، توفي السلطان المنصور قلاوون، وخلفه ابنه **الأشرف خليل بن المنصور** حكم البلاد، وفي سنة ١٢٩١م، تم على يديه تحرير الأرض العربية في بلاد الشام بفضل العزيمة الصادقة التي أبت أن تستكين للغزاة، رغم ما بذلته أوروبا والبابوية من حشد كافة الإمكانيات، إلا أنّ إرادة التحرير لدى القادة والشعوب العربية كانت أقوى من الأطماع الاستعمارية لملوك وأمراء أوروبا، وكانت أصلب من أن تكسر هذه الإرادة، لأنها كانت تعبيراً عن الدفاع عن الأرض والمقدسات، ولأنها كانت أكبر من أنانيات الذين حاولوا التمسك بالحكم على حساب وحدة الأمة والوطن والمقدّسات.

الفصل الثالث

الغزو الاستعماري الصهيوني واصطناع إسرائيل

المشروع الصهيوني لإقامة دولة يهودية في فلسطين:

كما ارتكز البابا أوربان الثاني على الدعاوى الدينية الباطلة لتخليص الأراضي المقدسة «فلسطين التي تفيض لبناً وعسلاً»، فإنَّ المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة «بال» السويسرية سنة ١٨٩٧م، ارتكز أيضاً في بناء برنامجه الداعي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين وتنمية الاستيطان اليهودي فيها، ارتكز على الدعاوى والأساطير والنبوءات التي أوردها كتبة العهد القديم.

وكما لاقت دعوة البابا أوربان الثاني، تأييد وملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها بالزحف صوب فلسطين واحتلالها، فإنَّ الدول الاستعمارية الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية

تسابقت فيما بينها إلى احتضان البرنامج الصهيوني الذي كانت من أحد أسبابه لإخراجه إلى حيز الوجود، وقد تجلى الاحتضان الإستعماري الأوروبي للمشروع الصهيوني الرامي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، من خلال تسهيل هجرة اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين، وإقامة مستعمرات خاصة بهم، ونتيجة ذلك ارتفع عدد اليهود في فلسطين من (٥٦٠٠٠) يهودي في العام ١٩١٨م إلى (٦٥٠٠٠٠) يهودي في العام ١٩٤٨م، وفي ٢/ نوفمبر/ ١٩١٧م، جاء وعد «بلفور» مؤكداً على هذا الاحتضان، حيث تعهدت بريطانية من خلال هذا الوعد، «بتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين»، أي إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون في خدمة مصالحها، ومصالح القوى الإستعمارية الأخرى، «وبإصدار هذا الوعد تحولت الصهيونية من مرحلة التنظير إلى مرحلة التنفيذ العملي بالعمل على إقامة دولة يهودية في فلسطين كمشروع سياسي مستند في ظاهره إلى خلفية توراتية أيديولوجية تتمثل ركائزها في أساطير وخرافات ونبوءات العهد القديم»[1]، بينما هو في الحقيقة: مشروع إمبريالي/

---

(١) عبد الله عمارة: المحافظون الجدد، الوجه الآخر للصهيونية، مركز الدراسات الإسلامية، دمشق، ص ١٨.

صهيوني، يستهدف إقامة دولة يهودية -على شكل ثكنة استيطانية- في قلب الوطن العربي، تكون في خدمة المشروع الإمبريالي، للسيطرة على جناحي الوطن العربي، والهيمنة على ثرواته، وأسواقه التجارية، ومرافقه الاستراتيجية، هذا من ناحية، وللحيلولة دون تحقيق التنمية الحقيقية للوطن العربي، والعمل على محاربة أي مشروع وحدوي بين شعوبه.

وتحقيقاً للمشروع الإستعماري/ الصهيوني، فقد لاقى وعد بلفور الدعم الأميركي، وتأييد الدول الحليفة الأخرى، ويرز هذا جلياً من خلال تبني مؤتمر «سان ريمو» سنة ١٩٢٠م هذا الوعد، وفي سنة ١٩٢٢م، وضعت فلسطين تحت الإنتداب البريطاني، على أن تعمل على إقامة دولة يهودية في فلسطين، تنفيذاً لوعد «بلفور»، وبذلك كان وعد «بلفور» نتيجة التقاء المصالح البريطانية والدول الاستعمارية الأخرى بالأهداف المعلنة للحركة الصهيونية.

إن هذا الوعد ليس تعبيراً عن المصالح البريطانية والإستعمارية فقط، بل هو اعتداء صارخ على الشعب الفلسطيني وحقوقه التاريخية المتجذرة في أرضه فلسطين منذ أكثر من ستة آلاف عام، حتى أنّ المؤرخ الكبير «ارنولد ترينبي» لم «يجد مناصاً من إدانة بلاده على تقديم وعد بلفور للحركة

الصهيونية، معلناً إنه كإنكليزي يشعر بالخجل والندم الشديدين على ازدواجية المعايير الأخلاقية التي حكمت سلوك بلاده في الإقدام على هذه الفعلة المنكرة»[1].

قامت بريطانيا بصفتها المنتدبة بتسهيل الهجرة اليهودية الاستيطانية إلى فلسطين، وحماية المستوطنات اليهودية، وتسليح المنظمات الإرهابية الصهيونية، وإعدادها كجيش نظامي قادر على حماية الدولة (الثكنة الاستيطانية/ الاستعمارية) المزمع قيامها.

ولما رأت بريطانيا أنّ الحركة الصهيونية أصبحت تمتلك كلّ المقومات العسكرية التي تجعلها قادرة على إعلان الدولة الاستيطانية اليهودية، سارعت -بريطانيا- إلى نقل القضية الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة، وبضغط من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، أصدرت الأمم المتحدة في ٢٩/نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧م، قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين، دولة يهودية تشمل ٤٧، ٥٦٪ من مجموع أراضي فلسطين، على حين تشمل الدولة العربية ٨٨، ٤٢٪ من تلك

(١) الياس شوفاني: مرجع سابق، ص ٣٤١.

الأراضي، أما منطقة القدس الدولية، فكانت تشمل ما يساوي ٦٥، ..٪ منها[١].

إنَّ المساحة التي خصصت للدولة اليهودية في قرار التقسيم تكاد تتطابق مع خريطة مملكة بيت المقدس الصليبية التي أنشئت في عام ١٠٩٩م على الأرض التي احتلها الفرنجة بعد فترة قصيرة من بداية غزوهم، فقد احتلوا الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام، وهي رقعة بلغ امتدادها من الشمال إلى الجنوب نحو خمسمائة ميل، وبلغ عرضها حوالي خمسين ميلاً[٢].

إنَّ طرح القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة، كانت سانحة للولايات المتحدة الأمريكية لاحتضان المشروع الصهيوني/ الاستعماري، وتأمين إقامة الدولة اليهودية، بقرارمن الهيئة الدولية، فتحقق أهدافها من ذلك المشروع، تحت غطاء الشرعية الدولية الظالمة[٣]، ولكن حقيقة الأمر أنَّ الولايات المتحدة أرادت أن تحلَّ محل بريطانيا في

---

(١) صالح مسعود أبو صير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٧٠، ص٢٩٨.

(٢) عبد العال الباقوري: مرجع سابق، ص٢.

(٣) الياس شوفاني: مرجع سابق، ص ٣٤١.

المنطقة، وتتخذ من الدولة اليهودية ثكنة، بل قاعدة عسكرية متقدمة، تحقق من خلال الهيمنة على الوطن العربي.

حرب ١٩٤٨، واصطناع «إسرائيل»:

تكاد تتشابه أحوال المشرق العربي التي كانت سائدة قبيل بدء حملات الفرنجة، مع أحواله قبيل حرب ١٩٤٨، فالدول العربية التي كانت قد حصلت على استقلالها حديثاً، كانت تعاني من الإرث الإستعماري البغيض والمتمثل في التجزئة والضعف في البنية السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ناهيك عن الدول العربيةالتي كانت ما تزال ترسف تحت نير الاستعمار، وفي ظل هذا الواقع العربي المرير، وبعد أن تأكدت بريطانيا أنَّ الحركة الصهيونية بأذرعها الإرهابية المسلحة، أصبحت قادرة على انتزاع فلسطين من أهلها، وعلى مواجهة الجيوش العربية، أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين في ١٥/ مايو (أيار)/ ١٩٤٨، وبانسحاب بريطانيا في الموعد المحدد، أعلن دافيد بن غوريون في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ١٤/ مايو (أيار) ١٩٤٨ قيام «إسرائيل»، وبعد عشر دقائق من إعلان قيامها، اعترف بها الرئيس الأمريكي، هاري ترومان، وتتالت الاعترافات

الدولية بها»[1]، إن هذا الاعتراف الأمريكي المتزامن مع إعلان قيام «إسرائيل»، يظهر أن إسرائيل ولادة استعمارية حاضنتها الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الاستعماري.

وإزاء هذا الوضع دخلت خمس جيوش عربية لنصرة الشعب الفلسطيني، ولصيانة أمن الدول العربية من الخطر الصهيوني الذي بات يتهدد الدول العربية كافة، ورغم افتقار هذه الجيوش إلى العتاد، وغياب التنظيم والتنسيق، إلا أنها وبمساندة المقاتلين من أهل فلسطين والمتطوعين العرب، استطاعت أن تربك القوات الصهيونية، بل، إنَّ مناحيم بيغن وصف ما آلت إليه الأمور بقوله «تواردت الأنباء من جميع المدن والمستعمرات اليهودية أنَّ الشعب اليهودي أصابه الخوف... فجعل الشعب اليهودي يقوم بالمظاهرات الصاخبة داعياً إلى إنهاء الحرب بأي ثمن»[2].

سارع قادة الصهاينة إلى الاستغاثة بحلفائها من الدول الاستعمارية، فسارعت بريطانيا إلى اقتراح هدنة بين الطرفين، فوافق مجلس الأمن على قرار الهدنة في ٢٩/ مايو (أيار) ١٩٤٨، ويقبول الجامعة العربية الهدنة، دخلت حيز التطبيق

---

(١) الياس شوفاني: مرجع سابق، ٥٢٥.
(٢) صالح مسعود أو صير: مرجع سابق، ص٤٠٧.

العملي بتاريخ (١١ حزيران . يونيو١٩٤٨م)، وقد وصف أحد قادة الهاغاناه الهدنة أنها «نزلت علينا كالندى من السماء، بل، إنَّ وكيل القنصل الأميركي بالقدس، صرَّح: «إنَّ قرار مجلس الأمن الذي فرض الهدنة هو وحده الذي خلص اليهود وحال دون سحقهم على أيدي الجيوش العربية»[١].

إنَّ موافقة الدول العربية على الهدنة كان «أكبر خطيئة في تاريخ الحروب في الشرق العربي»[٢]، إن قبول الدول العربية بالهدنة، استجابة لقرارمجلس الأمن، وضغط الدول الكبرى، كان بمثابة الاعتراف بالأمر الواقع[٣]، أما القادة الصهانية، فقد رأوا في الهدنة ضرورة حيوية، تمنحهم الفرصة لإعادة تنظيم قواتهم، وتعزيزها بما يلزم من الأسلحة ونشطت القيادة الصهيونية دبلوماسياً وعسكرياً، فاستنفرت مؤسساتها، فتمكنت من جلب المتطوعين اليهود المدربين على القتال من جميع أنحاء العالم، كما تمكنت من إعادة بناء ترسانتها العسكرية بمساندة القوى الاستعمارية، ولما تيقنت القيادة الصهيونية من جاهزيتها العسكرية، ضربت بعرض

---

(١) صالح مسعود أبو صير: مرجع سابق، ص٤٠٦.

(٢) صالح مسعود أبو صير: مرجع سابق، ص٤٠٨.

(٣) الياس شوفاني: مرجع سابق، ص٥٣١.

الحائط قرار الهدنة وعاودت القتال في ٩تموز/ يوليو١٩٤٨، مستغلة حالة الفوضى والارتباك في الطرف العربي، وتدخل مجلس الأمن مرة ثانية، وفرض الهدنة الثانية بتاريخ ١٩تموز/ يوليو١٩٤٨م دون تحديد موعد لنهايتها.

إنَّ توقيع الهدنة الثانية، أدَّى إلى مزيد من التفكك العربي، والتدهور السياسي والعسكري، إذ ساءت العلاقات بين الدول العربية على خلفية الواقع المرير الذي آلت إليه الأمور في فلسطين، فاضطرَّت الدول العربية أن توقع الهدنة مع الكيان الصهيوني، ففي رودس وقعت إسرائيل في ٣نيسان. ابريل١٩٤٩م، وبموجبها بقيت الضفة الغربية والقدس الشرقية بيد الأردن، وفي ٢٤شباط/ فبراير١٩٤٩م، وقعت إسرائيل الهدنة مع مصر، وبموجبها، ظلَّ قطاع غزة بيد مصر، وفي رأس الناقورة، وقعت اتفاقية الهدنة مع لبنان في ٢٣آذار/ مارس ١٩٤٩م، وكانت المفاوضات مع سورية هي الأطول والأكثر تعقيداً، وفي النهاية توصل الطرفان إلى توقيع اتفاقية الهدنة في ٢٠ تموز/ يوليو١٩٤٩م، وبذلك أصبح الكيان الصهيوني يسيطر على ٤٤، ٧٧٪ من

فلسطين، عوضاً عن ٤٧ ، ٥٦٪ خصصت لها بموجب مشروع التقسيم(١).

إنَّ تدخل القوى الإستعمارية إلى جانب اليهود، ومدَّهم بالعون المادي والبشري، يعيدنا إلى المشهد الذي كانت عليه مملكة القدس اللاتينية التي كانت تستمد مقومات وجودها من الدعم الذي كانت تتلقاه من البابا وملوك أوروبا وأمرائها، وبذلك استطاعت الولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية إقامة بيت المقدس الصهيونية، عوضاً عن اللاتينية، ولكن إلى حين، **حيث أن مصيرها لن يكون أفضل من المصير الذي آلت إليه مملكة بيت المقدس اللاتينية.**

الحروب العدوانية الاحتلالية الإسرائيلية:

كما أنَّ الغزاة الفرنجة، أدركوا أنَّ مملكة بيت المقدس اللاتينية التي زرعوها في قلب الوطن العربي -فلسطين- لا يمكن لها أن تعمرّ طويلاً، طالما أنَّها تفتقر إلى الحدود التي يمكن تؤمن لها العمق الاستراتيجي، ومحاطة من جميع الجهات بأمة عربية صاحبة الأرض والتراث والتاريخ، إلى جانب أن هذه الأمة تصطف رافضة لوجود هذه المملكة، رغم

---

(١) أحمد طربين: قضية فلسطين، ج٢، ط١، ١٩٦٨، ص٩٦٤.

ما كان يعانيه المشرق العربي من ضعف وتجزئة، وتناحر بين حكامه.

فكذلك، وعى قادة إسرائيل «طبيعة هذه الدولة وحقيقتها كجسم غريب مغروس في قلب منطقة لا يمكن أن تقبله أو تتعايش معه، كما وَعَوا أنَّ وجود عرب فلسطين وحقَّهم الشرعي في البقاء على أرضهم، سيجبر بناة الدولة المصطنعة على اقتلاع السكان، واحتلال مكانهم بالقوة، الأمر الذي سيؤدي إلى صراع عنيف تزداد حدته مع ارتفاع مستوى وعي العرب أصحاب الأرض لطبيعة الخطر، وتزايد حاجة المهاجرين الجدد لمجال حيوي أوسع»[1]، لذا كان من الطبيعي أن تحذو حذو الاستراتيجية التي نهجتها مملكة بيت المقدس اللاتينية، مع الاستفادة من الأخطاء التي وقع بها الفرنجة الغزاة، فعمل قادة إسرائيل على بناء قوة مسلحة متفوقة مادياً، تحقق لها الأمن والتوسع، «وقادرة على تحقيق الردع النشيط عن طريق التلويح بالقوة أو استخدامها جزئياً عند الضرورة، والانتقال من استخدام القوة الجزئي إلى الحرب الشاملة مع نقل

---

(١) الهيثم الأيوبي: خطر الإبادة، أسطورة في قاعدة الاستراتيجية الإسرائيلية، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١٤، تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٧٢، ص٤٠.

المعركة إلى خارج أراضي الدولة»[1]، وفي سبيل تحقيق ذلك، فإن إسرائيل شنت -بعد حرب ١٩٤٨- خمس حروب عدوانية / توسعية، في السياق الذي يحقق أغراض استراتيجيتها السياسية والعسكرية من خلال:

- توسيع مناطق الاحتلال في فلسطين والدول العربية المجاورة.
- استيعاب أغلبية يهود العالم عن طريق الهجرة للتعويض عن قلة السكان التي تعاني منها إسرائيل.
- إبقاء المنطقة في حالة توتر واضطراب وحروب يسوِّغ لها طلب المزيد من المال والسلاح من حلفائها وبخاصة من الولايات المتحدة الأميركية.
- إرهاب السكان وطردهم من أرضهم، ولا مانع من إفنائهم.
- زعزعة الثقة بقدرات الأمة العربية، لإجبار العرب على قبول السلام الذي تفرضه إسرائيل بشروطها، ويكفل لها الهيمنة على المنطقة بما يخدم

---

(١) الهيثم الأيوبي: مرجع سابق، ص٤٠.

أهدافها، ومصالح حلفائها من الغرب الأوروبي والولايات المتحدة الأمركية.

- تضليل الرأي العام العالمي بمحاولة إسقاط الهوية السياسية والوطنية عن القضية الفلسطينية، وحصرها باعتبارها قضية لاجئين تتطلب حلاً إنسانياً بعيداً عن وطنهم الأصلي في فلسطين.
- زرع بذور الفتنة بين الدول العربية، ومحاربة كل أشكال الوحدة فيما بينها.

وتحقيقاً لتلك الاستراتيجية، شنت إسرائيل الحروب التالية:

حرب ١٩٥٦:

استغلت إسرائيل معاداة كل من بريطانيا وفرنسا للمواقف المصرية الوطنية والقومية، المتمثلة في: الطلب من بريطانيا إجلاء قواتها من مصر، وتم ذلك في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٦، وفي التوجه نحو المعسكر الاشتراكي، وعقد صفقة أسلحة كسراً لطوق احتكار التسلح الذي فرضته الدول الغربية على المنطقة، وتقديم العون السياسي والعسكري والمادي إلى الثورة الجزائرية، مما أغضب فرنسا الإستعمارية،

وتأميم قناة السويس في ٢٦آب (أغسطس) ١٩٥٦ للاستفادة من عائداتها، وقد جاء هذا التأميم رداً على تراجع كل من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا والمصرف الدولي عن تعهدهم بتمويل بناء السد العالي.

إنَّ المواقف المصرية الوطنية والقومية، لم ترق لكل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، فتلاقت المصالح والأطماع الاستعمارية لهذا الثالث، فبريطانيا سعت إلى العودة إلى منطقة قناة السويس، أمَّا فرنسا فإنها خشيت من المساندة المصرية للثورة الجزائرية، بينما إسرائيل رأتها فرصة سانحة لتنفيذ مخططها العدواني التوسعي لاحتلال المزيد من الأراضي العربية، وتأمين حرية الملاحة لها في خليج العقبة وقناة السويس، فاتفقت إسرائيل مع كل من بريطانيا وفرنسا على أن تبدأ -إسرائيل- بالهجوم على مصر، وفي أثناء ذلك، تتدخل كلتا الدولتان بحجة الفصل بين المتحاربين وضمان سلامة الملاحة في قناة السويس.

وتنفيذاً للخطة الثلاثية العدوانية، بدأت إسرائيل هجومها في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦، فاحتلَّت قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء شرقي قناة السويس، بما في ذلك شرم الشيخ وجزيرة تيران التي تتحكم في المدخل الشرقي لخليج

العقبة، وفي ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦، بدأ الهجوم البريطاني الفرنسي على مصر، ونظراً لصمود مصر من خلال المقاومة الشعبية، وأمام الضغوط الدولية، أوقفت بريطانيا وفرنسا عملياتها الحربية، وانسحبتا من مصر في أواخر سنة ١٩٥٦، أما إسرائيل، فقد انسحبت في ٨ آذار (مارس) ١٩٥٧، ولكن بعد أن ضمنت لسفنها المرور في خليج العقبة والوصول إلى ميناء ايلات[١].

إنّ الرابح الوحيد في هذا العدوان الثلاثي، كانت إسرائيل، حيث «يمكن القول إنّ مرور الملاحة الإسرائيلية في مضائق تيران، كان أهمّ مكسب حصلت عليه إسرائيل من حرب ١٩٥٦ ... ويعتبر المكسب المذكور منعطفاً هاماً في مسيرة الصراع العربي-الإسرائيلي، فقد انفتح البحر الأحمر أمام إسرائيل، وغدت تتمتع لأول مرة، بمزايا موقعها على البحرين: المتوسط والأحمر ...»[٢].

---

(١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين، تاريخها وقضيتها، قبرص، ط١، ١٩٨٣، ص١٤٩-١٥٢.

(٢) هيثم الكيلاني: حروب فلسطين العربية-الإسرائيلية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الخامس، دراسات القضية الفلسطينية، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص٥٤٠.

إنَّ نجاح إسرائيل في السيطرة على مداخل البحر الأحمر، كان تعويضاً عن الفشل الذي مُني به رينالد دي شاتيون (أرناط) أمير الكرك الفرنجي، الذي حاول في سنة ١١٨٣ أن يقتحم البحر الأحمر، ويغزو مكة والمدينة، وأن يتحكم في حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر، غير أنَّ الأسطول المصري أنزل به هزيمة ساحقة، وحال دون تحقيق مخططه.

حرب ١٩٦٧:

رغم ما حققته إسرائيل -في حرب ١٩٥٦- من نجاح في فتح مضائق تيران أمام ملاحتها في البحر الأحمر، فإنها فشلت في إبقاء قطاع غزة وسيناء تحت سيطرتها، حيث اضطرت للانسحاب منهما، ولذا لم تحقق غرضها الاستراتيجي المتمثل في توسيع رقعة احتلالها، فأخذت تعدُّ العدة من أجل شنِ حرب عدوانية/ توسعية على الدول العربية المجاورة، وتمهيداً لذلك، «قامت إسرائيل بين العدوان على غزة وسيناء في العام ١٩٥٦ وبين عدوان ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بسلسلة من الاعتداءات على حدود الدول العربية المحيطة بها حوالي (١٠٧) اعتداءات..»[1]، وكانت آخرها في نيسان (أبريل)

---

(١) أنيس صايغ ومجموعة باحثين: فلسطينيات، العدد، ١ص١٠٤، مركز الأبحاث، بيروت، تموز (يوليو)، ١٩٦٨، ص١٠٤.

١٩٦٧ ، حيث جرت اشتباكات عنيفة على الحدود السورية-الإسرائيلية، تصاعدت حدتها بحيث أصبحت سوريا مهددة بشن حرب إسرائيلية عليها، فقامت مصر، وتنفيذاً لمعاهدة الدفاع المشترك مع سوريا، بحشد قواتها على الحدود مع إسرائيل، إلى جانب طلبها من قوات الطوارئ الدولية الرحيل من منطقة شرم الشيخ المطلّة على مضائق تيران، وتبع ذلك إغلاق مصر لهذه المضائق أمام الملاحة الإسرائيلية.

اتخذت إسرائيل من الظروف الإقليمية والدولية الفرصة المواتية لتنفيذ مخططها العدواني/ التوسعي، هذا المخطط الذي كانت قد أعدَّته بإحكام مع حلفائها من الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية، فقامت في ٥حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بشن حرب صاعقة على الجبهات: المصرية، والسورية، والأردنية، وفي خلال ستة أيام تمكنت من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيوش العربية في الجبهات الثلاث، وبذلك، نجحت في تحقيق أهدافها الاحتلالية/ التوسعية، «فامتدت حدود إسرائيل بعد حرب حزيران أربعة أضعاف، إذ احتلت ١١٩٨كم٢ في سيناء (التي تبلغ وحدها ضعفي مساحة إسرائيل) و٥٨٧٨كم٢ في الضفة الغربية و١١٥٠كم٢ في

الجـولان و٣٦٢كم٢ في غـزة، أي أنهـا احـتلت ٢٠٪ من الأراضي المصرية و٧٠٪ من الأراضي الأردنية (الضفة الشرقية والضفة الغربية) و١٥٪ من أراضي سوريا، وكل غزة»[1].

بعد الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية الذي أصبح أمراً واقعاً، اجتمع مجلس الأمن، وأصدر في ٢٢تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ القرار ٢٤٢، والذي نص على «**سحب القوات المسلحة الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها**» في هذه الحرب، ولكن إسرائيل ضربت بعرض الحائط قرار مجلس الأمن، إنَّ عدم انصياع إسرائيل لقرار مجلس الأمن، هواستخفاف بالمنظمة الدولية الراعية للأمن والسلم الدوليين، وهو، تأكيد على أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الدول الحليفة، تشكل غطاء، يمنح إسرائيل التمرد على قرارات الشرعية الدولية، كما يمنحها حرية شن الحروب على الدول العربية مع توفير كل ما يلزمها لضمان تحقيق أهدافها العدوانية/ التوسعية، وبما يكفل إضعاف الوطن العربي، وإبقائه مجزءاً وعاجزاً عن استثمار كل موارده وبخاصة، البشرية، والاقتصادية، والعسكرية.

---

(١)أنطوان بطرس: مرجع سابق، ص٢٥.

إن حرب ١٩٦٧ ، خلَّفت نتائج كارثية على الوطن العربي، كانت من أسوأ الكوراث وأفظعها التي حلت بالأمة العربية عبر تاريخها الطويل.

حرب ١٩٧٣م:

بعد الهزيمة النكسة التي مُني بها العرب في عدوان ١٩٦٧ ، حاولت إسرائيل -استغلال حالة اليأس والقنوط التي يعيشها العرب- أن تجبر الدول العربية على توقيع معاهدات صلح معها، من منطلق ما تتمتع به من قوة عسكرية، ودعم القوى الإمبريالية اللامحدود لها، إلا أنَّ الرفض الجماهيري العربي حال دون تحقيق ذلك، بل إنَّ هذه الجماهير عبرت عن موقفها الغاضب، بأن ازداد احتضانها للثورة الفلسطينية المسلحة، ورأت فيها تعبيراً عن رفض الهزيمة، والإصرار على المقاومة، وعدم الاستسلام.

إن موقف الجماهير العربية ونخبها، شكَّل رأياً عاماً قوياً وضاغطاً على الحكام العرب، تماماً كما حصل بُعيد حملة الفرنجة الأولى، حيث كان للرأي العام الذي تشكل آنذاك دوره في رفض الاحتلال الفرنجي، ودوره في تبلور حركة المقاومة العربية الإسلامية ضد الفرنجة المحتلين، ودوره في ظهور عماد الدين زنكي الذي تحسس الموقف، فامتثل للرأي

العام، فأسس لوحدة جبهتي الشام ومصر، بل إنَّه أسس لانتصار العرب في معركة حطين، واسترداد بيت المقدس، وزوال الاحتلال الفرنجي.

وتحت تأثير تشكل رأي عام عربي قوي وضاغط ورافض للهزيمة، استجابت قيادتنا كل من مصر وسورية للرأي العام المطالب بتجاوز الهزيمة النكسة، والعمل على تحرير الأرض المحتلة، فقام تنسيق عال بين كل من مصر وسورية من أجل تحرير الأرض المحتلة، ولاقى هذا التنسيق الدعم العربي الرسمي والجماهيري بكل أشكاله، وفي السادس من تشرين الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣، عَبَرَت القوات المصرية قناة السويس بكفاءة عسكرية عالية، أذهلت العدو، كما تمكن الجيش السوري من تحرير مرتفعات جبل الشيخ الاستراتيجية، فأصيب العدو بالذهول والصدمة.

رأت الولايات المتحدة الأميركية في انتصار العرب تهديداً لمصالحها الإمبريالية في المنطقة، فأقامت جسراً جوياً وآخر بحرياً، مَدّت من خلالهما كل ما يلزم إسرائيل من عتاد حربي متطور، مما جعل إسرائيل تستعيد زمام المبادرة، فأحدثت ثغرة في قناة السويس نفذت منها إلى الضفة الغربية من القناة.

لما رأت الولايات المتحدة الأميركية أن إسرائيل استعادت زمام المبادرة، وأصبحت قادرة على المفاوضة من موقف قوي، وافقت على انعقاد مجلس الأمن الذي أصدر في ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣م القرار رقم (٣٣٨)، الذي نص على وقف فوري لجميع الأعمال العسكرية، والعمل على تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) بجميع أجزائه، وكعادة إسرائيل، وبعد وقف إطلاق النار، قامت وحداتها العسكرية بالتقدم إلى ضواحي السويس، كما عاودت احتلال جبل الشيخ بعد أن دفعت ثمناً غالياً من الضحايا.

أدَّت المساعي الدولية إلى اتفاقيات فك الارتباط بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤م، وبين القوات السورية والقوات الإسرائيلية في أيار (مايو) ١٩٧٤م، فانسحبت من مدينة القنيطرة، بعد أن دمرتها تدميراً كاملاً.

ورغم الأهداف العربية المحدودة التي وضعت للحرب، فإنَّ ما تحقق كان إنجازاً كبيراً، إذ أدَّت إلى زيادة ثقة العرب بقوتهم وسلاحهم وتضامنهم، حيث بلغ هذا التضامن العربي في حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ ذروته، فقد شارك عدد من الدول العربية في الحرب إلى جانب مصر وسورية

ومنظمة التحرير الفلسطينية، ولم تعد إسرائيل تلك الدولة القلعة التي يصعب اختراقها، كما أن حرب ١٩٧٣م، ونتيجة «كفاح الشعب العربي الفلسطيني وثورته والتفاعلات التي نجمت عن الحرب»[1]، كل ذلك أدى إلى الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية، وبأنَّها الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني، إنَّ هذا الاعتراف بدد كل أحلام إسرائيل في محو الهوية الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، بل إنَّ هذا الاعتراف ثبَّت حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وإقامة دولته الفلسطينية المستقلة ذات السيادة الكاملة، وذلك تنفيذاً للشرعية الدولية.

إنَّ التضامن العربي الذي برز جلياً في أثناء حرب تشرين الأول (أكتوبر)، والروح المعنوية العالية التي سرت في جسد الأمة العربية، سرعان ما تبدد كل ذلك، بعد توقيع معاهدة الصلح المصرية -الإسرائيلية، في ٢٦ مارس (آذار) ١٩٧٩م، التي نصَّت على الاعتراف بدولة إسرائيل، وإنهاء حالة الحرب بينهما، إنَّ توقيع هذه المعاهدة عمّق من الخلافات العربية، كما أنَّها، أصابت الجماهير العربية بدهشة وخيبة أمل، إنَّ ما نتج عن هذا المشهد من موقف جماهيري رافض لهذه المعاهدة،

---

(١) هيثم الكيلاني: الموسوعة الفلسطينية: مرجع سابق، ص٦٦٣.

يكاد يتطابق مع ردود الفعل العربية الغاضبة على اتفاقية الهدنة التي وقعها الملك الكامل مع الإمبراطور فردريك الثاني الذي قاد الحملة الصليبية السادسة، حيث تنازل فيها الملك الكامل عن القدس ومع ذلك، فإن اتفاقية الهدنة التي وقعها الملك الكامل مع الصليبيين في سنة ١٢٢٩م، كانت مدتها عشر سنوات، أما اتفاقية الهدنة التي وقعها صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين، في سنة ١١٩٢م، كانت مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر أي أنَّ هاتين الاتفاقيتين، ورغم اختلاف دوافع كل منهما، كانت كل واحدة منهما مقيَّدة بمدة زمنية محددة، ولم تكونا صلحاً نهائياً مع الصليبيين، كما المعاهدتان المصرية (١٩٧٩) والأردنية (١٩٩٤)، اللتان نصتا على الصلح النهائي مع إسرائيل.

غزو لبنان ١٩٨٢م:

عندما غزت إسرائيل لبنان في العام ١٩٨٢، لم يكن هدفها فقط تدمير بنية منظمة التحرير الفلسطينية وإخراج القوات السورية من لبنان، وإجبار الحكومة اللبنانية على توقيع اتفاقية سلام معها، وإنَّما إلى جانب هذه الأهداف، كانت تتطلع إلى تحقيق هدفها الاستراتيجي المتمثل في «الحصول على موارد المياه في الجنوب اللبناني، وبخاصة مياه

نهـري الليطاني والحـاصبـاني، وذلك إضـافـة إلى الأهداف الاستعمارية والتوسعية، الملازمة للحركة الصهيونية وكيانها (إسرائيل)»[1].

مهَّدت إسرائيل لهذا الغزو باجتياح جنوب لبنان في آذار (مارس) ١٩٧٨، في عملية أسمتها (عملية الليطاني)، وعلى **أثر هذه العمليـة أصدر مجلس الزمن الدولي القرار رقم (٤٢٥)، الذي نص على انسحاب إسرائيل من لبنان حتى الحدود الدولية، فانسحبت القـوات الإسـرائيليـة في حـزيران ١٩٧٨، وانتـشـرت قـوات الطوارئ الدولية، ولكنها أبقت تحت سيطرتها شريطاً حدودياً، تمَّ تسليم الأمن فيه إلى ميليشيا المتعاملين معها**[2].

استغلَّت إسرائيل حالة التفكك والوهن التي أصابت الصف العربي كنتيجة لمعاهدة الصلح المصرية-الإسرائيلية (١٩٧٩)، وانشغـال العـرب بالحرب الإيرانيـة-العـراقيـة، فوجدتها فرصة سانحة لتنفيذ ما خططت له، فبدأت اجتياحها للبنان في ٦ حـزيران (يونيـو) ١٩٨٢، وأطلقت على هذا

---

(١) هيثم الكيلاني: الموسوعة الفلسطينية: مرجع سابق، ص٧٠١.

(٢) مجلة الجيش اللبناني: لبنان على تخوم كيان احترف صناعة الحروب ١٩٤٨-٢٠٠٦، عن الإنترنيت: www. Iebarmy. gov.

الاجتياح مسمى «سلامة الجليل»، وقد شمل هذا الاجتياح ثلث الأراضي اللبنانية، «وتعد حرب ١٩٨٢ في لبنان هي أطول الحروب العربية -الإسرائيلية وأكثرها تأثيراً في الكفاح الفلسطيني وقضية فلسطين وحقوق الشعب الفلسطيني، وذلك لأنَّ إسرائيل هدفت منها إلى ضرب عدوها الحقيقي وخصمها التاريخي: الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية وقيادة نضاله، ولقد سعت إسرائيل في هذه الحرب إلى أن تكرر بشكل آخر، الدور الذي قامت به في حرب ١٩٤٨ منذ أربعة وثلاثين عاماً، حيث اجتثَّت معظم الشعب الفلسطيني من وطنه، وأبادت أكبر قسم منه، وهي في حرب ١٩٨٢، سعت إلى اجتثاثه من جوارها، وإبادة حركته الوطنية»(١).

قوبل الغزو الإسرائيلي للبنان بصمت عربي، إلا من التصريحات الخالية من أي رد فعل عملي، فواجهت الحركة الوطنية اللبنانية وقوات الثورة الفلسطينية والقوات السورية العاملة في لبنان، واجهت وحدها هذا الغزو الذي حشدت له إسرائيل ضعف عدد القوات التي زجّتها في حرب أكتوبر (١٩٧٣).

---

(١) هيثم الكيلاني: الموسوعة الفلسطينية: مرجع سابق، ص٦٦٤.

حاولت القوات الإسرائيلية احتلال بيروت، إلا أنَّها فوجئت بمقاومة عنيفة لم تمكنها من ذلك، فلجأت إلى حصارها وقصفها براً وجواً وبحراً بعشرات الآلاف من القذائف والصواريخ، ورغم ذلك صمدت بيروت (٨٣) يوماً، وفي أثناء ذلك توصل الوسيط الأميركي (فيليب حبيب) إلى «وضع الترتيبات اللازمة لخروج القوات الفلسطينية من بيروت، فوافق ياسر عرفات على ذلك، وقد توخّت المقاومة الفلسطينية بهذار القرار تجنيب العاصمة المزيد من الدمار والخسائر البشرية والمادية والمعاناة الإنسانية»[1].

وفي ٢١ آب (أغسطس) ١٩٨٢، بدأ إبحار أول مجموعة من المقاتلين من ميناء بيروت تحت الحماية الدولية، وأعطت الولايات المتحدة الأميركية تعهداً بحماية المدنيين الفلسطينيين بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين من لبنان، وانتهت عملية مغادرة القوات الفلسطينية يوم ـ٣١/ ٨/ ١٩٨٢)، فانتهزت القوات الإسرائيلية خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، فأشرفت على تنفيذ أبشع المذابح وأكثرها وحشية، ألا وهي **مذابح صبرا وشاتيلا في**

---

(١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين، تاريخها وقضيتها مرجع سابق، ص٢٢٢.

(١٦ أيلول /سبتمبر/ ١٩٨٢)، التي ذبح فيها (٣٢٩٧) مدني أعزل[1].

بعد خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، استمرت حركة المقاومة الوطنية اللبنانية تقاوم ببسالة الإحتلال الإسرائيلي، وأمام تصاعد هذه المقاومة، وتزايد عملياتها وتكاثر الخسائر البشرية في قوات الاحتلال، وعجز القوات عن مواجهة العمليات الفدائية البطولية، وعن تحمل ضرباتها القاسية، وعدم قدرة القوات على تحقيق أهدافها التي من أجلها غزت لبنان، لم يكن لدى إسرائيل من سبيل سوى الإعلان عن انسحابها من لبنان، «فأعلنت في (١٠ حزيران/ يونيو/ ١٩٨٥) انسحاباً رسمياً من لبنان، غير أنَّ هذا الانسحاب لم يكن كاملاً، **فقد احتفظت إسرائيل بنسخة معدلة من الشريط الحدودي الذي كانت أقامته بعد اجتياح ١٩٧٨، وأضافت إليه قرى وبلدات أخرى باتت مساحته تبلغ نصف مساحة الجنوب وعشر مساحة لبنان»**[2].

رغم أن إسرائيل استخدمت كل آلتها العسكرية المتطورة، ورغم الصمت الدولي والعربي الرسمي على هذا

---

(١) هيثم الكيلاني: الموسوعة الفلسطينية: مرجع سابق، ص٦٩٣.

(٢) مجلة الجيش اللبناني: عن الانترنيت، مرجع سابق.

العدوان، إلا أنها فشلت في إبادة البنية الأساسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، كما فشلت في إلغائها كعامل سياسي ذي وزن عربي ودولي، كما أنَّها فشلت في اخراج القوات السورية من لبنان، كما أنَّ الحركة الوطنية اللبنانية حالت دون تمكين إسرائيل من عقد معاهدة سلام مع لبنان.

المجازر التي ارتكبتها إسرائيل:

كما ارتكب الفرنجة المجازر بحق السكان (مسلمين ومسيحيين) في المناطق التي احتلوها، وبخاصة في فلسطين، فإنَّ إسرائيل ارتكبت من المجازر بما هو أكثر بشاعة -ليس فقط- من مجازر الفرنجة، بل فاقت في بشاعتها ووحشيتها ما ارتكب من مجازر ضد الإنسانية عبر التاريخ البشري.

إنَّ ارتكاب هذه المجازر، ليست مرتبطة بشخصية صهيونية يهودية معينة دون سواها، أو بحكومة يمينية، أو يسارية، أو في فترة زمنية محدودة، وإنما، هذه المجازر التي ترتكبها إسرائيل منذ العام ١٩٤٨ -ناهيك عن المجازر التي ارتكبتها الحركة الصهيونية قبل العام ١٩٤٨- وحتى الآن، وبصورة مستمرة، ومتواصلة، ووفق خطة ممنهجة، وأنَّ جميع الحكومات التي تعاقبت على حكم إسرائيل ضليعة في ارتكاب هذه المجازر، بل إنَّ هذه المجازر تلقى تأييداً من معظم فئات

المجتمع الصهيوني اليهودي في إسرائيل، من سياسيين وعسكريين، وغيرهم، وبخاصة رجال الدين اليهود، فإنهم جميعاً، يرون في هذه المجازر الطريق الأقصر لإبادة الشعب الفلسطيني أصحاب فلسطين الأصليين، إبادة جماعية، من أجل جعل إسرائيل دولة يهودية صافية، خالية من أصحابها الحقيقيين.

بل إنَّهم يرون في تنفيذ هذه المجازر امتثالاً لأوامر «يهوه» إلههم الذي خلقوه، وجعلوه إلهاً خاصاً بهم، منغلقاً على نفسه، كما أنهم خلعوا عليه أخلاقهم ونزعاتهم، فكيَّفوا طبيعته الشرسة المولعة بالحرب وسفك الدماء، وجعلوا منه إلهاً مقاتلاً، باطشاً، منتقماً، رهيباً، متعطشاً أبداً للضحايا، منتشياً برائحة الدم، حقوداً، لم يكن من شيء يطفئ لهيب الحقد في صدره غير الدم المسفوك(1)، بل أشار هؤلاء إلى أنَّ التطهير العرقي الذي يحدث في فلسطين، هو انفاذ لأمر الرب، وردّوا هذا التفويض الإلهي إلى سفر الخروج (٢٧ : ٢٣-٢٣)، إذ ورد فيه مايلي: «ذلك سأسلّمكم سكان الأرض، وستسوقونهم خارجاً أمامكم لن تعقدوا أي ميثاق معهم ومع آلهتهم، ولن يعيشوا في أرضكم، وإلا

(١) جورجي كنعان: أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٨، ص٢٢٢.

فسيجعلونكم ترتكبون الخطيئة ضدي، ذلك أنكم إذا عبدتم آلهتهم فسيكون ذلك بالتأكيد شركاً لكم»[1] .

وخير مثال على ذلك، ما قاله الحاخام اليهودي «عوفاديا يوسف» الزعيم الروحي لحركة شاس: «فليبيد الله العرب، وليقضي على نسلهم، وليخفهم عن وجه البسيطة، ومن المحظور الترحم عليهم، ويجب قصفهم بالصواريخ، وابادة هؤلاء المجرمين»[2] ، أما الحاخام «موشيه ليفنغر»، كان يكرر: «إنني لم أتشرف بقتل عربي بعد»[3] .

إنَّ هذه الروح العدوانية، المحبة لسفك الدماء، والمسرفة في صناعة القتل، والحاقدة على العرب، أصبحت جزءاً من البناء الوجداني للتلاميذ اليهود في إسرائيل، ويستدل على ذلك الدراسة الميدانية[4] التي قام بها العالم الأميركي «غ . تامارين» الذي عمل زمناً طويلاً في إسرائيل، حيث طرح النصوص التالية من سفر «يشوع» الواردة في العهد القديم،

---

(١) مجموعة عائدون: مرجع سابق، ص ٨٣ .

(٢) مركز زايد للتنسيق والمتابعة: الإرهاب في العقيدة الصهيونية، أبو ظبي، أغسطس ٢٠٠١، ص٢٤ .

(٣) نافذ أبو حسنة: فلسفة صناعة الموت اليهودية، مجلة الشاهد حزيران ٢٠٠١، عن الانترنيت: www. Fatehnews. Net .

(٤) جورجي كنعان: وثيقة الصهيونية في العهد القديم، دار النهار للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٢، ص ٦٤-٦٦ .

على حوالي ألف تلميذ وتلميذة من مختلف الصفوف في المدارس الإسرائيلية، وقد جاء في الصيغة: أنت تعرف جيداً هذه الأسطر من سفر «يشوع»:

«فهتف الشعب، وضربوا الأبواق، وكان حين سمع الشعب صوت البوق، إن الشعب هتف هتافاً عظيماً، فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدنية... وحرّموكل ما في المدينة، من رجل وامرأة، ومن طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (يشوع٦م٢٠).

«وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم، وضربها بحد السيف، وحرّم ملكها وكل نفس بها، لم يبق شارد، وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز من مقيدة وكل إسرائيل إلى لبنة، وحارب لبنة، فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها، فضربها بحد السيف، وكل نفس بها، لم يبق شارداً، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا» (يشوع ١٠/٢٨).

أجب من فضلك على السؤالين التاليين:

١- هل ترى في تصرف يشوع بن نون، والإسرائيليين، تصرفاً صائباً أم خاطئاً، ولماذا؟

٢- لنفترض أن الجيش الإسرائيلي احتل قرية عربية في الحرب، وفعل بسكانها ما فعله يشوع أريحا، فهل يكون تصرفه، في رأيك حسناً أم سيئاً؟ ولماذا؟

جاءت معظم إجابات التلاميذ (النسبة تتراوح بين ٦٦-٩٥٪) تتمحور حول:

«إن الإسرائليين أحسنوا صنعاً إذ احتلوا المدينة، وقضوا على سكانها، نحن لا نريد أن يكون في إسرائيل عنصر عربي».

«لقد أحسن يشوع بن نون صنعاً حين قتل كل الناس في أريحا، لأن همه كان ينحصر في احتلال البلاد كلها، ولم يكن لديه وقت لينشغل بالأسرى».

«في رأيي كان كل ما قام به يشوع بن نون صحيحاً، ذلك أنَّنا نريد أن نقتل الأعداء ونوسع حدودنا، ولو كان الأمر معنا لفتكنا بالعرب جميعاً، كما فعل يشوع بن نون والإسرائيليون».

«في رأيي إن على جيشنا أن يفعل بالقرية العربية ما فعله يشوع بن نون، لأن العرب أعداؤنا».

إن الكيان الصهيوني، تمكن من توظيف التراث الديني اليهودي في تشريب الناشئة في المجتمع اليهودي في إسرائيل بثقافة المجازر المعبرة عن الروح العنصرية العدائية، وبما يكفل تحقيق أهدافه الاحتلالية الاستعمارية العنصرية، وبما يجعل

إسرائيل لها دور وظيفي، تنفذ مصالح بعض الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية، ومن هذا المنطلق، فإنَّ المجازر التي ترتكبها إسرائيل بحق الفلسطينيين بخاصة والعرب بعامة، تحظى بمباركة لا أخلاقية من الولايات المتحدة الأميركية وبعض الدول الغربية، والمرعب في هذا الموقف اللاأخلاقي، هو أنَّ خطراً داهماً يحيق بالبشرية، حيث أن هذا الموقف الصامت والمبارك لهذه المجازر، هو نذير شؤم يهدد المبادئ التي أُنشئت من أجلها هيئة الأمم المتحدة التي تسعى للعمل من أجل السلام والتنمية، وبما يكفل تحقيق العدالة والكرامة الإنسانية.

في ضوء ما ورد سابقاً، **فإن إسرائيل تلجأ إلى التطهير العرقي من خلال ارتكاب المجازر بحق الفلسطينيين، بقصد إفنائهم، والتخلص منهم، كأصحاب الأرض الحقيقيين، وبما يضمن لهم أن تصبح إسرائيل دولة يهودية خالصة.**

أما المجازر التي ترتكب بحق السكان العرب في الدول العربية المجاورة لفلسطين فإنها تهدف إلى تخويف الشعوب العربية، وإرهابها، وإحباطها، ونزع الثقة بقدرتها على مقاومة ورفض الكيان الصهيوني، للوصول بها إلى حالة من اليأس، بحيث تجعلها متقبلة لهذا الكيان الغريب العدواني الإستعماري.

وفي هذا السياق، ارتكبت إسرائيل مئات المجازر، التي تفوق كل وصف، ويعدُّ السكوت عنها بمثابة فضيحة أخلاقية، وجريمة بشعة يندى لها جبين البشرية خجلاً، ولا يتسع المجال لذكرها، وإنما يُكتفى ببعض الأمثلة، ومنها:

مجزرة دير ياسين (١٠/أبريل/١٩٤٨)[١]:

تعرضت قرية دير ياسين الفلسطينية إلى هجوم مباغت في الساعة الثانية فجراً، واستمرت عمليات القتل والتنكيل بالسكان العزل حتى ساعات الظهر، وقد راح ضحيتها (٣٦٠) شهيداً معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وقد أشرف على تنفيذها كل من: مناحيم بيغن واسحق شامير.

مجزرة حولا اللبنانية[٢]:

قاد مناحيم بيغن الهجوم على بلدة حولا فجر ٣١/ ١٠/ ١٩٤٨، وارتكب بحق سكانها العزل مجزرة بشعة، حيث تمَّ إعدام الرجال والمسنين، وتدمير المنازل فوق رؤوس قاطنيها، وقد أودت هذه المجزرة بحياة (٩٠) لبنانياً.

---

(١) مركز زايد للتنسيق والمتابعة: الإرهاب في العقيدة الصهيونية مرجع سابق، ص٢٦.

(٢) ملف عن أبرز المجازر الإسرائيلية: عن العربية نت بتاريخ ٣٠/ ٧/ ٢٠٠٦ www.alarabia.net.

مجزرة كفر قاسم[1]:

فرضت قوات الإرهاب الصهيوني نظام حظر التجول على قرية كفر قاسم الفلسطينية، في مساء ١٩/ ١٠/ ١٩٥٦، وعندما عاد السكان والعمال إلى قريتهم، فوجئوا بنيران الأسلحة المختلفة تحصدهم، وتم قتل الرجال والشيوخ والنساء والأطفال بدم بارد، وقد راح ضحية هذه المجزرة (٤٩) من أهالي القرية.

مجزرتا خان يونس[2]:

اقترفت قوات الإرهاب الصهيوني مجزرتين بحق اللاجئين الفلسطينيين في خان يونس، نفذت الأولى في (٣/ ١١/ ١٩٥٦)، وراح ضحيتها (٢٥٠) فلسطينياً، أما الثانية، فقد نفذت في (١٢/ ١١/ ١٩٥٦)، وراح ضحيتها (٢٧٥) فلسطينياً، وجميعهم من المدنيين العزل.

---

(١) مركز المعلومات الوطني الفلسطيني: المجازر الإسرائيلية بحث الشعب الفلسطيني، www.pnic.gove

(٢) مركز زايد للتنسيق والمتابعة: الإرهاب في العقيدة الصهيونية مرجع سابق، ص٢٩.

مجزرتا أبو زعبل وبحر البقر[1]:

نفذ جيش العدوان الإسرائيلي مجزرتين، لا تقلان وحشية ودموية عن بقية المجازر التي ارتكبتها، ففي (١١/ فبراير/ ١٩٧٠)، تم تنفيذ مجزرة أبو زعبل في منطقة القاهرة، وراح ضحيتها (٦٩) عاملاً مصرياً ومئات الجرحى، أما الثانية فقد نفذت في (٨/ أبريل/ ١٩٧٠)، وراح ضحيتها (٤٦) تلميذاً في الصف الأول الابتدائي من مدرسة بحر البقر في منطقة بور سعيد.

مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل[2]:

إنَّ هذه المجزرة كغيرها من المجازر، تدل على الكراهية والحقد العنصري، ففي أثناء تأدية المصلين صلاة الفجر في ٢٥/ ٢/ ١٩٩٤، أقدم الإرهابي «باروخ جولد شتاين» ومعه مجموعة من المستوطنين على إطلاق النار وتفجير القنابل اليدوية على المصلين بدم بارد، وراح جنود الإرهاب الصهيوني يطلقون النار على الهاربين من المصلين، وقد

---

(١) سجل المجازر الإسرائيلية: www.aljazeera.net بتاريخ ٣١/ يوليو/ ٢٠٠٦.

(٢) مركز زايد للتنسيق والمتابعة: الإرهاب في العقيدة الصهيونية مرجع سابق، ص٣٢.

راح ضحية هذه المجزرة نحو (٥٠) شهيداً قتل (٢٩) منهم داخل المسجد.

مجزرة جنين[1]:

ارتكب الجيش الإسرائيلي مجزرة بشعة بحق سكان مخيم جنين، حيث قامت هذه القوات في الفترة من (٣-٨) أبريل/ نيسان ٢٠٠٢ باجتياح المخيَّم، مستخدمة صنوف الأسلحة كافة، كالمروحيات، والجرافات المدرعة، والدبابات، وغيرها، وأقدمت بكل وحشية على هدم المنازل على رؤوس قاطنيها، بل قامت بقتل طواقم الإسعاف الطبية بدم بارد، وقد راح ضحية هذه المجزرة ٥٠٠ شهيد.

مجزرة قانا الأولى والثانية[2]:

تعرضت بلدة قانا اللبنانية إلى مجزرتين، جرت الأولى في (١٨/ ٤/ ١٩٩٦)، وراح ضحيتها (١٠٥) مواطناً لبنانياً بينهم (٣٣) طفلاً، أما الثانية، فقد وقعت في (٣٠/ ٧/ ٢٠٠٦)، وراح ضحيتها (٦٠) مواطناً لبنانياً، بينهم (٢٢) طفلاً.

---

(١) تقرير الأمين العام للأمم المتحدة عن مجزرة جنين: عن الإنترنيت، ملفات خاصة، www. aljazeera.net، بتاريخ ١٧/ ٥/ ٢٠٠٦.

(٢) ملف عن أبرز المجازر الإسرائيلية: عن العربية نت، بتاريخ ٣١/ ٧/ ٢٠٠٦ www.alarabia.net.

الفصل الرابع

زوال مملكة بيت المقدس ومصير إسرائيل

عوامل زوال مملكة بيت المقدس اللاتينية:

إن الدولة الصليبية التي أقامها الاحتلال الفرنجي في بيت المقدس، كانت دولة مصطنعة، لأنها لاتمت بصلة إلى العمق التاريخي العربي ومكانه الجغرافي، كما أنَّها غريبة في ثقافتها وهويتها عن هذا العمق ومكانه الجغرافي، لأنها امتداد للهوية والثقافة الغربية، وبالتالي فإنَّ هذه «الدولة المصطنعة التي تعيش على استيراد السكان والمال والنقود والسلاح، لايمكن أن تعيش، ولابد أن تسقط في اللحظة التي ينقطع فيها «الحبل السري» الواصل بينها وبين الغرب [1]، فلذلك فإنَّ هذه الدولة المصطنعة اضمحلت شيئاً فشيئاً، وزالت من الوجود نتيجة تضافر العوامل التالية:

(١) شاكر مصطفى: الموسوعة الفلسطينية: مرجع سابق، ص٤٠٩.

- اقتناع أوروبا بأنه لاجدوى من الاستمرار في دعم مملكة بيت المقدس اللاتينية، حيث أنَّ كل الدعم المادي والبشري الذي قدمه ملوك وأمراء أوروبا- طوال قرنين من الزمان- للدولة الصليبية، لم يستطع الحفاظ على وجود هذه الدولة.

- ارتكاز قيم الدولة الصليبية على العنصرية، حيث مارست التفرقة العنصرية بين المسيحيين الغربيين الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية، والمسيحيين الشرقيين الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية، وفي هذا السياق، يعلق «أرنست باركر»: مؤلف كتاب «الحروب الصليبية»، يعلق على تحرير بيت المقدس، وعودة الحكم الإسلامي إليها، قائلاً: «رحبت الأرثوذكسية اليونانية وسائر المذاهب المسيحية الشرقية بعودة الحكم الإسلامي، لما اشتهر به المسلمون من تسامح ديني»[1].

- معاناة الدولة الصليبية من أزمة سكانية، بسبب امتناع كثير من الأوربيين عن المجيء إليها، بل شهدت هذه الدولة هجرة معاكسة، وزادت معاناتها نتيجة تناقص في نسبة المواليد من جهة أخرى.

- القضاء على التجزئة، وتحقيق الوحدة بين جبهتي بلاد

---

(١) أرنست باركر: مرجع سابق، ص٨٤.

الشام ومصر، وحشد كل الطاقات العربية، كل ذلك، أسهم في محاصرة الدولة الصليبية، وتقليص نفوذها وزوالها.

- استجابة الحكام للرأي العام العربي/ الإسلامي الرافض للاحتلال الفرنجي، والمقاوم له، والمطالب بالتخلص من التشرذم، والتجزئة، وتحقيق التضامن، وحشد كل الموارد، لمواجهة الدولة الصليبية الاستيطانية الاحتلالية.

- الهدنات التي وقعت مع الفرنجة، كانت عبارة عن وقف لإطلاق النار، ولم تكن تسوية دائمة، ولم تنه حالة الحرب، ولم تعترف بشرعية الاحتلال الصليبي، ولا بحق المملكة الصليبية في الوجود، ولا بأي حدود آمنة أو غير آمنة لتلك الدولة الصليبية[1].

مصير إسرائيل:

إن إسرائيل، ورغم تفوقها العسكري، ورغم ما تملكه من قنابل نووية، ورغم المساعدة المادية، والمساندة المعنوية، التي تتلقاها من حلفائها وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، ورغم الحالة الراهنة التي يعيشها النظام العربي الرسمي من حيث التجزئة والضعف والتناحر، فإنَّ إسرائيل تعيش هاجساً بؤرق مستقبلها،

---

(١) أنيس القاسم: تأملات في الحتلالين الصليبي والصهيوني، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٤، ص٢٧٥.

ويعبر عن ذلك، «ناحوم غولدمان»، وهو، أحد أبرز قيادات المنظمة الصهيونية، وأحد الذين اصطنعوا دولة إسرائيل، إذ يقول في كتابه «إسرائيل إلى أين»: **«فعندما أتمعن في السنين الماضية، أتساءل، إلى أين آلت إسرائيل، ولا أستطيع بالرغم من الغبطة والفخر اللتين أشعر بهما حيال عدد كبير من الإنجازات الإيجابية ـ لا أستطيع إلا أن أحس بخيبة أمل عميقة»**[1]، وخيبة الأمل التي عبّر عنها «ناحوم غولد مان»، هي تعبير حقيقي عن اهتزاز ثقة الإسرائيليين بمستقبل إسرائيل، وذلك نتيجة عوامل عديدة من أبرزها:

- تعيش إسرائيل في قلق دائم من الخطر الديمغرافي الذي يهدد كيانها، كونها أعطت نفسها صفة الدولة اليهودية الخالصة، ويتمثل هذا الخطر بما يأتي:

* ارتفاع عدد السكان العرب الفلسطينيون أصحاب الأرض الأصليون[2]، في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، من (٩٠٠، ١٥٤) شخص في العام ١٩٤٨، إلى (٥٠٠، ٤١٣، ١) شخص في نهاية عام ٢٠٠٦، ويشمل هذا العدد سكان القدس

---

(١) ناحوم غولد مان: إسرائيل إلى أين: منشورات فلسطين المحتلة، ط١، ١٩٨٠، ص١١٩.
(٢) كذا وردت والأصح الفلسطينيين الأصليين.

الشرقية والهضبة السورية المحتلة، وبذلك، أصبح العرب، يمثلون ما نسبته (٢٠٪) من سكان إسرائيل [١].

* ارتفاع نسبة المواليد لدى العرب الفلسطينيين، والتي تصل إلى نحو ضعف نسبة المواليد لدى اليهود في إسرائيل، حيث أن نسبة المواليد لدى الفلسطينيين (٣٤) لكل ألف، ولدى اليهود (١٨,٥) لكل ألف [٢].

* سيصبح الفلسطينيون العرب الذين يعيشون تحت السيطرة الإسرائيلية أغلبية في المنطقة الواقعة بين الأردن والبحر المتوسط، وذلك في العام (٢٠١٠)[٣]

- فشل خطة إسرائيل الإعلامية والدبلوماسية، التي بنتها على أساس تضليل الرأي العام العالمي، وخداعه، بحيث تجعله ينظر إلى القضية الفلسطينية باعتبارها قضية لاجئين، تتطلب حلاً إنسانياً، بعيداً عن الحل السياسي، ولكنَّ الشعب الفلسطيني المقاوم، والمتمسك بحقوقه الوطنية، وبحقه في تقرير مصيره، الذي كفلته الشرعية الدولية، كشف للرأي العام العالمي الخداع

---

(١) فلسطينيو ١٩٤٨ عن الانترنيت: WWW.Pls 48.net ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٧.

(٢) صبري جريس، أحمد خليفة: دليل إسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٣، بيروت كانون الثاني، (يناير) ١٩٩٧، ص٥٠.

(٣) مجموعة عائدون: مرجع سابق، ص٣٢٨.

الإسـرائيلي؛ الـذي حـاول أن يطمس الهـوية الوطنيـة للشـعب الفلسطيني، وذلك، بالإعلان عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية في العـام ١٩٦٤، هـذه المنظمـة التي أعطت القـضيـة الفلسطينيـة بعدها الوطني والسياسي.

وبفـضل نضـال الشـعب الفلسطيني وكـفـاحـه العـادل والمشـروع، **اعـتـرفت هيـئـة الأمم المتـحـدة -في خـريف عـام ١٩٧٤- بمنظمـة التـحـرير الفلسطينيـة، ممثـلاً شـرعـيـاً وحـيـداً للشـعب الفلسطيني، وأعطت الأمم المتـحـدة للمنظمـة مكانة مـراقب دائم في الأمم المتحدة**[1] كما اعترفت معظم دول العالم بالمنظمة باعتبارها كياناً سياسياً، ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني، وبذلك أصبحت إسرائيل تعيش مأزقاً حقيقياً إزاء هذه التطورات.

- تمسك الشعب الفلسطيني المتواجد في الشتات، بحقه في العودة إلى أرضه الفلسطينية التي هُجّر منها قسراً، ورفضه القاطع التنازل عن هذا الحق، **ويستند الفلسطينيون في موقفهم هذا، إلى كونهم أصحاب الأرض الأصليين، وإلى الشرعية الدولية المتمثلة في القرار ١٩٤، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١١/ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨م، والذي ينص على حق اللاجئين الفلسطينيين غير القابل للتصرف في العودة إلى بيوتهم وممتلكاتهم، التي رُحلوا عنها واُقتلعوا منها.**

---

(١) عبد القادر ياسين، ومجموعة من الباحثين: أربعون عاماً من حياة م.ت.ف، حزيران (يونيو) ٢٠٠٦، المركز الفلسطيني للتوثيق دمشق.

إن أكثر ما يقلق إسرائيل تمسك الفلسطينيين بحق العودة، ويتجلى هذا، ليس فقط من خلال الأفراد، وإنما من خلال قيام مؤسسات المجتمع المدني، من مثل، بديل، ومجموعة عائدون، وغيرهم.

إن تمسك الفلسطينين بحق العودة، بدّد الوهم الذي عاشته إسرائيل، والتي تصورت أنَّ الزمن كفيل بنسيان الفلسطيني لوطنه وهويته، وقد ثبت أنَّ الزمن عمّق الذاكرة الفلسطينية، وجعلها أكثر استحضاراً لهويته الوطنية والقومية، وأشدّ تمسكاً بهذه الهوية، وبحقه بالعودة إلى وطنه فلسطين.

- تصرف إسرائيل كنظام تمييز عنصري، سيجلب عليها إن عاجلاً أم آجلاً، انتقادات المجتمع الدولي، إلى الحد الذي يفرض عليها عقوبات دولية، باعتبارها **«نظام حكم يستند إلى مفاهيم التفوق العرقي والاثني والديني، أي أنَّه نظام حكم أبارتها يد، ينفي مفهوم المساواة البشرية الذي تتأسس عليه حقوق الإنسان والديمقراطية»**(١).

ومن هذا المنطلق، فإن صفة الديمقراطية تنتفي عن إسرائيل، لأنها تعتبر نفسها دولة ليست لكل مواطنيها، بل دولة لمواطنيها اليهود في إسرائيل وفي العالم أجمع دون غيرهم، فلذلك،

---

(١) مجموعة عائدون: مرجع سابق، ص٨٨.

تمارس كل أشكال التفرقة العنصرية ضد مواطنيها من العرب الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين، وتحرمهم من حقوق المواطنة باعتبارها مواطنين غير يهود، بل أقل مرتبة من مواطنيها اليهود، وفي هذا الصدد، يصف الروائي الإسرائيلي عاموس ايلون أوضاع الفلسطينيين في إسرائيل، فيقول: «**إن تردّي حال العرب الإسرائيليين، يُعزى، قانوناً، إلى تعريف إسرائيل نفسها بأنها دولة يهودية، ذلك التعريف الذي يبدو كأنه يستبعد، نظرياً على الأقل- من سكانها المصنّفين رسمياً بأنهم غير يهود، إن المساواة الحقيقية للمواطنين الفلسطينيين لايمكن أن توجد في إسرائيل، لأن إسرائيل ليست دولة مواطنيها، بل دولة اليهود أينما يقيمون، والعرب الإسرائيليون، وإن قيّض لهم أن يتمتعوا بحقوق متساوية في جميع المسائل الأخرى، فإن إسرائيل ليست دولتهم**»[(١)]

وفي هذا السياق، أعلن المؤرخ الإسرائيلي «إيلان بابه» في أثناء محاضرته التي ألقاها بعنوان «**النكبة في عامها الستين، أعلن قراره بمغادرة إسرائيل احتجاجاً على عنصريتها، واتباعها جرائم التطهير العرقي، حيث لفت إلى أنّ النكبة جريمة عنصرية، وأنّ المجرمين الكبار هم (١١) قائداً برئاسة ديفيد بن غوريون، خطّطوا خلسة في الغرف المظلمة للتطهير العرقي، وأضاف: قرّر أولئك بدم بارد تطهير البلاد من مليون فلسطيني في شتاء عام ١٩٤٨ من أجل إقامة**

(١) صبري جريس، أحمد خليفة: مرجع سابق، ص١٤٠.

دولة يهودية على ٨٠ ٪ من أرض فلسطين ـ وأكد، أن الصهيونية فاسدة أخلاقياً من أساسها واستهجن قبول إسرائيل ضمن الأسرة الدولية[1].

إنَّ الممارسات العنصرية الإسرائيلية، امتدَّت لتشمل الفلسطينيين والعرب كافة، الذين يقعوا[2] تحت سيطرتها، سواء في غزة والضفة أو في هضبة الجولان السورية المحتلة، وجدار الفصل العنصري المدان من محكمة العدل الدولية، خير شاهد على ذلك.

إن مثل هذه الممارسات تمزق القناع الديمقراطي التي تخفي وراءه عنصريتها التي فاقت النازية والفاشية، كما فاقت نموذج الأبارتهايد في جنوب أفريقيا سابقاً، وفي هذا السياق، أوردت صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية في عددها الصادر في ١٣/ ٥/ ٢٠٠٧ تصريحاً لوزير مخابرات في جنوب أفريقيا روني كاسريلز، انتقد فيه إسرائيل، قائلاً: **«إنَّ ما تمارسه إسرائيل لايختلف عن إرهاب الدولة ـ كما أنَّه اتهم إسرائيل بتنفيذ سياسات ضد الفلسطينيين أكثر سوءاً من سياسة التمييز العنصري، وموضحاً**

---

(١) ايلان بابه: النكبة في عامها الستين، عن العربية نت: WWW.aljazeera. net بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠٠٧.

(٢) كذا والأصح يقعون.

أن كثيراً ما تعقد مقارنة بين التمييز العنصري والاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، ولكنهما لايتطابقان، لأن الاحتلال أكثر سوءاً[1].

إن هذه الحالة الراهنة التي تعيشها إسرائيل، تشكل مأزقاً حقيقياً على المدى البعيد، ولو أنَّ هذا المأزق مازال قاصراً على أن يفتَّ في عضد الكيان الإسرائيلي، إلا، أنَّه يحمل بين طياته صورة المصير الذي ستؤول إليه إسرائيل، مما حدا بكثير من قادة إسرائيل الصهاينة إلى التفكير الجاد بمصير إسرائيل في ضوء سياساتها العنصرية والعسكرية العدوانية التوسعية، ومن هؤلاء: ناحوم غولدمان الذي طرح في كتابه «إسرائيل إلى أين» السؤالين التاليين:

- «أي نوع من الدول نأمل لدولة إسرائيل أن تكون؟

- وأي نوع من الدول ننوي لدولة إسرائيل أن تصبح؟

ومن أجوبته على هذين السؤالين«وإذا استمرت الظروف الراهنة، وإذا لم يقم سلام حقيقي، وإذا لم نجعل العالم العربي يقبل بإسرائيل كلياً، فإن الحالة لايمكن إلا أن تزداد سوءاً على سوء، وأنَّ الدعم الكامل الذي تقدمه مجمعات الشتات لإسرائيل، والذي يعتبر الشرط الأساسي لبقائها، سيضمحل من عام إلى عام، وبالتأكيد من

(١) جيروزاليم بوست: ما تمارسه إسرائيل أسوأ من التمييز العنصري، عن: WWW.Aljazeera. net بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠٠٧.

جيل إلى جيل.. إنّ الجانب الأكثر مأساوية للوضع الآن، هو التطور الذي أدى إلى تفاقم عزل إسرائيل عن العالم.. إن دولة إسرائيل لها صديق واحد، من يعلم إلى متى ستدوم تلك الصداقة؟ هو الولايات المتحدة الأمريكية، التي ستصبح في المدى البعيد بموقف غير ثابت.. أما الدولة الإسرائيلية التي تنعم بالسلام مع جيرانها العرب، والتي لاتشكل تهديداً مستمراً للسلم العالمي، والتي لاتصبح مصدر إزعاج بالنسبة للبلدان الأخرى.. إنّ مثل تلك الدولة فقط هي التي تملك فرصة معقولة للبقاء، ويمكن لها أن تحظى بوجود مضمون من قبل الرأي العام العالمي [1].

أما الإسرائيلي دانييل غافرون، الذي بقي صهيونياً معظم حياته، فقد أقلقه مصير إسرائيل، فكتب: «فإذا شاء اليهود الإسرائيليون الآن ضمان مستقبلهم على المدى البعيد في المنطقة فإنّ عليهم، أن يوافقوا على التخلي عن السيادة اليهودية، وأن ينتقلوا بسرعة، مادام ميزان القوى مائلاً لصالحهم، إلى ديمقراطية متعددة الإثنيات، ثم يقول: بعد ٥٥ سنة من السيادة اليهودية، آن الأوان لفرط الدولة اليهودية وبناء دولة إسرائيلية -فلسطينية مكانها.. فبعد أن استنتجنا أنّ على المنطقة الواقعة بين المتوسط ونهر الأردن أن

(١) ناحوم غولد مان: مرجع سابق، ص١٤٢.

يتمَّ تقاسمها ولكن لايمكن تقسيمها، بقي أمامنا خيار واحد لاغير، التعايش الإسرائيلي -الفلسطيني في دولة واحدة »(١) .

ولا يخفي عيزرا وايزمن شكوكه باستمرارية الدولة الإسرائيلية العدوانية ، حيث قال : **«أصبح من الواضح، أنه يجب علينا أن نخضع لنوع من التحول النفسي قبل أن نستطيع الإيمان بالسلام والتحرك إلى الأمام، إننا نحن العسكريين قد أنشأنا جيلاً كاملاً من المقاتلين وعلى الأجيال القادمة أن تعلّم شعب إسرائيل بطريقة ذكية وعقلانية أن يؤمن بضرورة اتفاقيات السلام مع العرب»**. (٢) ولكن ، هل إسرائيل جادة في هذا التحولّ؟ ، وهل هي جادة في تنفيذ قرارات الشرعية الدولية ، بما يكفل تخليها عن كافة الأراضي العربية المحتلة ، وإخلاء المستوطنات ، وهدم جدار الفصل العنصري ، وقيام دولة فلسطينية مستقلة ، وكاملة السيادة ، وعاصمتها القدس ، وعودة اللاجئين الفلسطينيين كافة إلى أراضيهم ودورهم التي طردوا منها في العام ١٩٤٨ وما تلاها ، أم أنَّ غطرسة القوة أعمت بصيرتها ، وحالت دون الاستفادة من نتائج الدراسات التي أجرتها حول حملات الفرنجة؟ إن غطرسة القوة التي تتفاخر بها

---

(١) صبرب جريس ، أحمد خليفة : مرجع سابق ، ص١٤٣ .
(٢) طاهر شاش : التطرف الإسرائيلي ... جذور وحصاد ، عن الإنترنيت :
WWW.fateh. net

إسرائيل، ليست أعظم من غطرسة القوة التي تفاخرت بها ممالك الفرنجة وبخاصة مملكة القدس اللاتينية، ومع ذلك، لم تستطع هذه المملكة أن تصمد أمام تضامن العرب ووحدتهم، فتهاوت، وزالت من الوجود، دون أن يقوى الغرب على مساندتها، فهل غطرسة القوة التي تتباهى بها إسرائيل، تستطيع أن تحميها من المصير الذي آلت إليه مملكة القدس اللاتينية، عندما يستعيد العرب وحدتهم وقوتهم، وعندما تكتشف الولايات المتحدة ومعها الدول الغربية أن مصالحها تقتضي تحجيم الدور الوظيفي الذي تقوم به إسرائيل، والذي من أجله اصطنعت في المنطقة؟ .

المصادر والمراجع:

١- أنطوان بطرس: مشكلة إسرائيل بين أمثولة التاريخ وبرامج البقاء، شؤون فلسطينية، العدد٢٢، حزيران (يونيو) ١٩٧٣.

٢- الياس شوفاني: الموجز في تاريخ فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١.

٣- أرنست باركر، ترجمة السيد الباز العريني: الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، بيروت.

٤- أنيس صايغ ومجموعة باحثين: فلسطينيات، العدد ١، مركز الأبحاث، بيروت، تموز (يوليو)، ١٩٦٨.

٥- أنيس القاسم: تأملات في الاحتلالين الصليبي والصهيوني، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٤.

٦- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، ١٩٩٠.

٧- ايلان بابه: النكبة في عامها الستين، عن العربية نت: WWW.aljazeera. net بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠٠٧.

٨- تقـرير الأمين العـام للأمم المتحـدة عن مـجـزرة جنين: عن الانتـرنت، ملفـات خـاصـة، WWW.aljazeera. net ، بتاريخ ١٧/ ٥/ ٢٠٠٦.

٩- جورجي كنعان: وثيقة الصهيونية في العهد القديم، دار النهار للنشر، ط٢، ١٩٨٢.

١٠- رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، عالم المعرفة، العدد ١٨٦، يونيو (حزيران).

١١- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو- المصرية، ط١٠، ١٩٨٦.

١٢- سيد علي الحريري، تحقيق: عصام محمد شبارو: دار التضامن ومؤسسة دار الكتاب الحديث، ط١، ١٩٨٨.

١٣- ستيفن رنسيمان، ترجمة السيد الباز العريني: تاريخ الحروب الصليبية، دار الثقافة، ط٢، بيروت، ١٩٨١.

١٤- شـاكـر مـصطفى: فلسطين مـا بين العـهـدين الفـاطمي والأيوبي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، الدراسات التاريخية، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

١٥- شمس الدين الكيلاني، محمد جمال باروت: الطريق إلى القدس، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي.

١٦- صبري جريس، أحمد خليفة: دليل إسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٣، بيروت كانون الثاني، (يناير) ١٩٩٧، ص٥٠. صلاح الدين محمد نوآر: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، دار الدعوة، ١٩٩٣.

١٧- صلاح الدين محمد نوآر: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، دار الدعوة، ١٩٩٣.

١٨- صالح مسعود أبو صير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٧٠.

١٩- طاهر شاش: التطرف الإسرائيلي... جذور وحصاد، عن الانترنت: WWW.fateh. net

٢٠- عارف العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة.

٢١- عبد العال الباقوري: العرب والصهاينة، دروس في التجربة الصليبية، عن الانترنيت، WWw.sis. gov .

٢٢- عبد اللطيف زكي أبو هاشم: بحث لماذا أحرق مايكل دوهان منبر نور الدين زنكي، وزارة الأوقاف والشئون الدينية فلسطين، عن الانترنيت. WWW.palwakf.org .

٢٣- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٩.

٢٤- عبد القادر ياسين، ومجموعة من الباحثين: أربعون عاماً من حياة م.ت.ف، حزيران (يونيو) ٢٠٠٦، المركز الفلسطيني للتوثيق دمشق.

٢٥- عبد الله عمارة: المحافظون الجدد، الوجه الآخر للصهيونية، مركز الدراسات الإسلامية، دمشق.

٢٦- فلسطينيو ١٩٤٨ عن الانترنيت: WWW.pls48.net ٢٦/٤/٢٠٠٧.

٢٧- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، العدد ١٤٩، مايو (أيار) ١٩٩٠، الكويت.

٢٨- كتاب العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر بيروت، ١٩٥٠.

٢٩- مجوعة عائدون: قضية اللاجئين الفلسطينيين والقانون الدولي، أعمال ندوة دمشق، كانون الأول ٢٠٠٦، ص٨٣.

٣٠- محمود إبراهيم: حطين بين أخبار مؤرخيها، وشعر معاصريها، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٨٧.

٣١- مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين، تاريخها وقضيتها، قبرص، ط١، ١٩٨٣.

٣٢- مجلة الجيش اللبناني: لبنان على تخوم كيان احترف صناعة الحروب ١٩٤٨-٢٠٠٦، عن الإنترنيت: WWW.lebarmy.gov

٣٣- ملف عن أبرز المجازر الإسرائيلية: عن العربية نت بتاريخ ٣٠/٧/٢٠٠٦ WWW.alarabiya.net

٣٤- مركز المعلومات الوطني الفلسطيني: المجازر الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني، WWW.pnic. gov .

٣٥- ناحوم غولد مان: إسرائيل إلى أين: منشورات فلسطين المحتلة، ط١، ١٩٨٠.

٣٦- مركز زايد للتنسيق والمتابعة: الإرهاب في العقيدة الصهيونية، أبو ظبي، أغسطس ٢٠٠١.

٣٧- نافذ أبو حسنة: فلسفة صناعة الموت اليهودية، مجلة الشاهد، حزيران ٢٠٠١، عن الانترنت: WWW.fatehnews. net

٣٨- هيثم الكيلاني: حروب فلسطين العربية- الإسرائيلية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الخامس، دراسات القضية الفلسطينية، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

٣٩- الهيثم الأيوبي : خطر الابادة، أسطورة في قاعدة الاستراتيجية الإسرائيلية ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ١٤ ، تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٧٢ .

٤٠- هيثم الكيلاني : حروب فلسطين العربية- الإسرائيلية ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، المجلد الخامس ، دراسات القضية الفلسطينية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٠ .

الفهرس

الصفحة

عدد الطبع

٢٠٠٠ نسخة

القدس عاصمة ثقافية للعرب

كتاب يذكرنا بما نعرفه ونحدسه، يذكرنا بمأساة مرت بها شعوبنا قبل ثمان مئة عام حين تعرضت للغزو البربري الأوربي تحت اسم حروب صليبية، فيقيم مقارنة بين الغزوة الصليبية والغزوة الصهيونية ويتنبأ كما يتنبأ الصهاينة العقلاء أنفسهم لصهيون بمصير الصليبيين ولو طال الزمن.

كتاب جدير بالقراءة.





٢٠٠٩

السعر (٥٠) ل.س